الفصل الثالث
كيفية مواجهة الغربة الأولى

كيفية مواجهة الغربة الأولى

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْـوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الأخِـرَ وَذَكَرَ الله كَثِيرًا)[1].

إن المهمة التي يجب أن يتصدى لها الباحثون في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، وفي تاريخ الدعوة الإسلامية -عامة- ليست مجرد الرصد التاريخي لمرحلة معينة، وسرد أحداثها، وتدوين وقائعها فحسب.

بل إن المهمة أخطر من ذلك، وهي مهمة تحليل هذه المرحلة، ودراسة ملابساتها، ومعرفة الأحوال المؤثرة وغير المؤثرة فيها، من أجل أن ينطلق المسلمون اليوم في دعوتهم، والتمكين لدينهم من المنطلق ذاته، ويقيموا بنيانهم على الأساس ذاته، فهي - إذًا- مهمة مزدوجة: تاريخية وواقعية.

وظلــم لهــذه المرحلــة -مرحلــة الــدعوة الأولى-، كما هو ظلم للمسلمين؛ أن يزعــم أحــد أن مــا يكتبــه كــافٍ فــي الموضــوع، كلا؛ بــل إن ميدان دراسة السيرة وتحليلها من الميادين التي لا تزال تعاني من نقص كـبير، سـواء فـي مجـال تمحيص الروايات، ودراسـتها دراسـة حديثيـة، أو في مجال الدراسة، والتحليـل، ورسـم الخطـط، والمناهج، على ضوء نتائج هـذه الدراسـة. ولكـن هــذا لا يمنــع مــن المشــاركة والمحاولــة بقــدر الإمكان.

خطوات بارزة:

منذ أن وُجِّه الرسول صلى الله عليـه وسـلم إلى القيام بالنذارة والدعوة في قولة تعالى: **(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ▪ قُمْ فَأَنْذِرْ)**[2].

انطلق عليـه الصـلاة والسـلام فـي حركـة لا تتوقف يدعو إلـى اللـه تعـالى، وقـد تـوجت هـذه الحركـة بتحقيـق النصـر، وقيـام الدولـة، وزوال الغربة، واضمحلال شأن المعارضين.

وبين هذه الانطلاقة، وهـذه النهايـة، سلسـلة مـن المتـاعب، والجهـود، والتضـحيات الجسـام، والدماء، والدموع، والآلام، وقدر كبير ضـخم مـن الأحداث، والوقائع، ما بيـن ضـعف وقـوة، ونصـر وهزيمة، وفرح ومصيبة.

ولكـن المطـالع لتلـك الأحـداث يسـتطيع أن يرسـم خطًّـا تصـاعديًا - مـن حيـث الجملـة- لحركـة الـدعوة النبويـة، يتبين من خلاله بعض الملامح البـازة، والخطـوط العريضة لتصاعد حركة الإسلام.

وقد سارت الدعوة بخطوات متتاليـة، ينـدفع بكل خطوة منها قدر مـن الغربـة، ويتحقـق قـدر من التمكين والاسـتقرار، حـتى انـدفعت الغربـة بالكلية بفتح مكـة، وإحكـام السـيطرة الإسـلامية على جزيرة العرب، ونزل قوله تعـالى: (**الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًـا**)[3]. حيـث كمـل الدين، وتمت النعمـة، وهـذا يعنـي زوال الغربـة، واكتمـال الأمـر مـن الناحيـة التشـريعية، ومـن الناحية الواقعية.

وســأعرض - فيمــا يلــي- لأهــم الخطــوات المتسلسلة في حركة الدعوة، ثم أحــاول عــرض بعــض العوامــل الــتي أدت إلــى التمكيــن ودفــع الغربة.

فأما الخطوات، فأهمها ما يلي:

1- الجهر بالدعوة:

فبعد أن مكث رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم ثلاث سـنين يـدعو إلـى اللـه سـرًا من يثق به من قرابته وأصدقائه، أمره الله تعـالى بإنـذار عشـيرته الأقربيـن، فأنـذرهم، ثـم أمـره أن يصدع بالدعوة، فصدع بهـا بيـن ظهرانيهـم، فصـعد صلى الله عليه وسلم على الصفا، فجعل ينادي: **يا بني فهر، يا بني عدي،** لبطـون قريـش، حـتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسـل رسـولاً؛ لينظـر مـا هـو؟ فجـاء أبـو لهـب وقريش، فقال: **أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بـالوادي تريـد أن تغيـر عليكـم، أكنتـم مصـدقي**؟ قـالوا: نعـم. مـا جرّبنا عليك إلا صدقًا، قـال: **فإني نـذير لكـم بيـن يـدي عـذاب شـديد**، فقـال أبـو لهـب: تبًّا لك سائر اليوم. ألهـذا جمعتنـا؟!، فنـزلت **(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ▪ مَا أَغْنَـى عَنْـهُ مَـالُهُ وَمَـا كَسَبَ)**[4].

ولقد كـانت النتيجـة القريبـة المباشـرة لهـذا الصــدع هــي: الصــد، والإعــراض، والســخرية، والإيـذاء، والتكـذيب، والكيـد المـدبر المـدروس، ولكن الأمور لا توزن بهذا الميزان.

فالداعية قد وطـن نفسـه منـذ البدايـة علـى تحمل الصد، والإيذاء، ومواجهة الكيد، والعــداوة، والحرب، ولـم يكـن مـا لقيـه غريبًـا عليـه، ولقـد صارحه ورقة بن نوفل بهذا عقيب أول لقاء لقيـه فيه الملك:

عن عائشة رضي الله عنها في حديث بدء الوحي قالت: ...فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسـد بـن عبـد العـزى ابـن عـم خديجة، وكان امرءًا قد تنصر فـي الجاهليـة، وكـان يكتــب الكتــاب العــبراني، فيكتــب مــن الإنجيــل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شـيخًا كـبيرًا قد عمي فقالت له خديجة: يـابن عـم! اسـمع مـن ابن أخيك، فقال له ورقة: يـابن أخـي، مـاذا تـرى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نــزل اللــه على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك!.

فقال رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم: **أو مخرجيَّ هم؟** قال: نعم. لم يأت رجـل قـط بمثل ما جئت به إلا عـودي!، وإن يـدركني يومـك أنصرك نصرًا مؤزرًا...[5]

ولكن الأمر المهم في قضية الصـدع والجهـر هو نقل الصـراع إلـى ميـادين جديـدة تـدل علـى مدى التقـدم الـذي أحرزتـه الـدعوة مـن جـانب، وتحقق للدعوة - في الوقت نفسه- تقدمًا آخر.

فالمعركة بين النبي صلى الله عليه وسـلم وصـحبه، وبيـن شـيوخ الوثنيـة وزعمائهـا بـاتت مكشـوفة، يراهـا النـاس فـي مكـة، ويتنـاقلون أخبارها في كل مكان. وهذا -بحد ذاتـه- مكسـب عظيـم للـدعوة، سـاهم فـي تحقيقـه أشـد وألـد أعدائها، ممن كـانوا يشـيعون فـي القبائـل قالـة السوء عنها، فليس كـل النـاس إمّعـات يأخـذون دعوى القرشيين مأخذ التسـليم، ولابـد أن يوجـد من شتى القبائل مـن يتنطّـس الأخبـار، ويتحـرى الصواب، فيظفر به.

ولقد كان تناقل الناس للأخبار مشافهة هو أهم وسيلة إعلامية في ذلك العصر، فكان من نتيجة إعلان الدعوة، وما تبعه من استفادة من المجالات العلنية المتاحة، أن سمع القاصي والداني بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم[6]، وفرض هذا الحدث المفاجيء نفسه على الواقع، وصار هو حديث الساعة -كما يقال-، ومهما يكن من تباين مواقف الناس إزاء هذا الحدث، إلا أن هذا الدين الذي نزل ليحكم الدنيا كان لابد له من الصدع والإعلان، ومما بعد الصدع والإعلان.

فهذا الإعلان كما كان نتيجة وثمرة للجهود السابقة التي بذلها الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه، فهو كذلك تمهيد طبعي للخطوات التالية له، والتي منها كسر الحصار المفروض على الدعوة، والانتقال بها إلى مواقع جديدة، قد تمثل ذلك في العرض على القبائل، والخروج للطائف، وهجرتي الحبشة.

لقد كان أولى الناس بتوجيه الدعوة إليهم: قريش، وأهل مكة -وبالأخص عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم الأقربين- فوجه إليهم الدعوة من خلال هذا المنبر العلني، أنذرهم عذاب الله وبأسه إن لم يؤمنوا.

فلما أبوا ونفروا وصـخبوا فـي وجـه الـدعوة وغالبوها؛ خطّط الرسول صلى الله عليـه وسـلم لنقل الدعوة إلى مكان آخر تستقر فيـه وتنطلـق منه، فكانت الخطوة التالية هي:

2- الدعوة خارج مكة:

ضاقت مكة ذرعًا بالرسول صلى الله عليـه وسلم وبأتباعه، وبـدأت معهـم حربًـا ضـارية مـن الكيد والإيذاء والمقاطعة -سـبقت الإشـارة إلـى شيء منها[7]-، ففكر الرسول صـلى اللـه عليـه وسلم بالخروج بالدعوة من مكة لتحقيق هـدفين في آن واحد.

أولاً: للبحث عن موطن يأمن فيه المسلمون على دينهم، ويسلمون مـن أذى قريـش وفتنتهـا، حيث لا تطالهم يدها، ولا يمتد إليهم بطشها.

ثانيًـا: للبحـث عـن بيئـة تقبـل الـدعوة، وتسـتجيب لهـا فـي مقابـل عنـت القرشـيين وكنـودهم، ومـن هـذه البيئـة تنطلـق إلـى آفـاق الأرض، تحقيقًا لأمر الله بالتبليغ للعالمين.

فأقدم الرسول صلى الله عليه وسلم على عدد من الخطوات الكفيلة - بإذن اللـه- بتحقيـق هذين الهدفين.

(أ) الهجرة إلى الحبشة:

وذلك أنه لما كان في رجب من السنة الخامسة من البعثة أذن النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة لعدالة ملكها، وإمكانية تمتع المسلمين فيها بحريتهم الدينية، فخرج منهم نحو أحد عشر رجلاً، وأربع نسوة، فأقاموا عنده بخير مقام، في خير دار، عند خير جار.

عن أم سلمة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: "لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء، والفتنة في دينهم، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في منعة من قومه وعمه، ولا يصل إليه شيء مما يكره، مما ينال أصحابه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه.**

فخرجنـا إليهـا أرسـالاً، حـتى اجتمعنـا بهـا، فنـزلنا بخير دار إلى خير جار، أَمِنَّا على ديننا ولم نخش منه ظلمًا[8]...

وقد تسامع هؤلاء المهاجرون بأن قريشًا قـد أسلمت، وكفت عن إيذاء النبي صلى الله عليـه وسلم فرجعوا، فوجدوا الأمر أشد ما كان.

فأذن النبي صلى الله عليه وسلم بـالهجرة الثانية، فهاجر قرابة المئة مـا بيـن رجـل وامـرأة واستقروا هناك، فرجع منهم من رجع بعد الهجرة إلى المدينة، ورجعت بقيتهم عام خيبر[9].

فيا تـرى مـا هـو الهـدف مـن هجرتـي الحبشة؟

تذكر بع ض مصـادر السـيرة أن النـبي ص لى اللــه عليــه وســلم كــان يحــب أن يهــاجر إلــى الحبشة[10]، وهذا بعيد؛ لأسباب كثيرة:

(أ) منها أنه ثبت -كما سيجيء- رؤية النــبي صلى الله عليـه وسـلم دار الهجـرة أرضًـا ذات نخل بين حرتين وأنه ظنها هجر[11].

(ب) ومنهـا طبيعـة الوضـع الجغرافـي فـي الحبشــة الــذي يعــوق انتشــار الــدعوة، وبســط سلطانها على العالم.

(ج) ومنها حاجز اللغة.

(د) ومنها أن اختيار الجزيرة العربية -ومكة بالـذات، ثـم المدينـة- لنـزول الـوحي وانطلاق الدين لم يكـن أمـرًا اتفاقيًّـا؛ بـل كـان لمميـزات كثيرة -سيمر ذكر بعضها-.

وبناء على هذا، فإن هجرة المسلمين للحبشة لم تكن تمهيدًا لانتقال الرسول صلى اللـه عليـه وسلم إليها. وإنمـا الهـدف الأول منهـا هـو حمايـة المؤمنين المستضـعفين مـن أذى قريـش، ودفـع غربتهم المعنوية، وتأمينهم علـى دينهـم، كمـا ورد التصريح به في العديد من الروايات، ومنها روايـة أم سلمة[12].

ولا يعارض هذا أن يكون في عزم المسـلمين أن ينشروا الدعوة إلى اللـه فـي أي مكـان حلـوا فيه، إذ إن الدعوة إلى الله جزء من الـدين الـذي يريـدون أن يـأمنوا عليـه، ويبحثـوا عـن مكـان يقـدرون أن يـؤدوه فيـه، وينطلقـوا منـه إلـى مـا سـواه، وليـس المقصـود تمكينهـم مـن أداء شعائرهم فحسب.

ولقد كان لهجرتي الحبشة أثر كبير في تخفيف الغربة المفروضة على المسلمين في مكة، والإسقاط في يد قريش، خاصة حين أرسلت رسلها للنجاشي؛ لرد المسلمين إلى مكة فرجعوا بالخيبة والفشل[13].

كما كان لهما أثر في الحط من مكانة القرشيين عند سائر العرب، إدانة موقفهم من الدعوة وحملتها، إذ كانت البيئة العربية تفتخر بإيواء الغريب وإكرام الجار، وتتنافس في ذلك، وتحاذر السبة والعار في خلافه.. فهاهم الأحباش يسبقون قريشًا ويؤوون من طردتهم وأساءت إليهم من أشراف الناس، ومن ضعفائهم، ومن غربائهم!.

وهذه كلها آثار إيجابية، لا يضير أن يوجد إلى جوارها آثار سلبية قليلة، منها: أن إيواء الحبشة للمسلمين، وطيب مقامهم بها أذكى نار الحقد لدى قريش، فضاعفت من حربها، ومكرها، وعداوتها، وكان من آثار ذلك حصار الشعب، الذي كان بعد هجرة الحبشة - على الراجح[14].

(ب) الخروج للطائف:

مما ضاعف من أحزان النبي صلى الله عليه وسلم ومتاعبه، وزاد من غربته؛ وفاة زوجه خديجة وعمه أبي طالب في عام واحد، فثقلت عليه صلى الله عليه وسلم الأرزاء والنوب، وبرحت بقلبه الآلام الجسام، ولكن أصحاب الدعوات الصادقة، يستعذبون العلقم في سبيل الله، ويستلذون التعب في مرضاته، ولا يلتفتون إلى الوراء، ولا يتوقفون، ولا يترددون، وإن كانوا يجهدون ويحزنون.

فيالله لهذا القلب العظيم المتلئ بالإيمان، تهجم عليه الأحزان المتوالية هجوم الليل! فيثكل خديجة التي كانت خير ناصر له ومعين -بعد الله-، ثم يفاجأ بوفاة عمه الذي كان يحوطه، ويحميه، ويحبه أشد الحب وأزكاه، ويضاعف من حزنه - عليه الصلاة والسلام - أن مات كافرًا!!.

وتستغل قريش هذا فتزيد من إيذائها له وتضييقها عليه، وكان أبو لهب -خليفة أبي طالب- من أكثر الناس كراهية للدعوة وصاحبها، ومقتًا وحقدًا ودناءة!.

حـتى كـان يلاحـق النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم فـي الموسـم، وفـي الأسـواق التجاريـة، ويرميه بالتراب والحجـارة، ويقـول: إنـه صـابئ، كذاب، ويحذر الناس من اتباعه[15].

فتضيق بـه صـلى اللـه عليـه وسـلم مكـة، ويخـرج صـوب الطـائف يطلـب النصـرة، فمـاذا لقي؟.

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: "هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحد؟ قال: **لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة[16]، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب[17]، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد! فقال ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟** فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا"**[18].

فقد رد أهل الطائف النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به ردًّا قاسيًا حتى خرج من عندهم حزينًا، ورجع إلى مكة، فذُئِرَ أهلها، وزاد حنقهم وغيظهم، حتى لم يستطع صلى الله عليه وسلم أن يدخل مكة إلا في جوار المطعم بن عدي، بعد أن التمس الجوار عند الأخنس بن شريق وسهيل بن عمرو فرفضا[19].

جـ - العرض على القبائل:

وبعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من الطائف، بدأ يعرض نفسه على القبائل، في المواسم، يشرح لهم الإسلام، ويطلب منهم الإيواء والنصرة، حتى يبلغ كلام الله عز وجل.

عن سالم بن أبي الجعد عن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس في الموقف، فقال: **"ألا رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي"**[20].

وفي رواية الإمـام أحمـد قـال: "فأتـاه رجـل من همدان، فقال: **ممن أنــت؟** فقــال الرجــل: مــن همــدان. قــال: **فهـل عنـد قومـك مـن منعة؟** قال: نعم، قال: ثم إن الرجـل خشـي أن يحقره قومه فأتى رسول الله صـلى اللـه عليـه وسلم فقال: آتيهم فأخبرهم، ثـم آتيـك مـن عـام قابل. قال: **نعم.** فانطلق، وجاء وفد الأنصار في رجب"[21].

وواضح من عرض الرسول صـلى اللـه عليـه وسلم أنه يلتمس الإيواء والنصرة والحماية، وأن يجد من العرب من يمكنه من إعلان دعــوته فــي جو آمن هادئ، وهذه خطوة كبيرة، فـي مواجهـة غربة الإسلام وأهله.

فالمواسم التجارية ومواسم الحج تجتمع فيها قبائل العرب كافة، وكون الرسول صلى الله عليه وسلم يعرض بضاعته السماوية عليهم في ملإهم أمر في غاية الأهمية للدعوة حيث يفتح مجالاً واسعًا لنشره، ورفع شأن أهلها، وهو في غاية الإزعاج لقريش، إذ لا يبعد أن يجد من بعض القبائل آذانًا مصغية، فتستجيب لدعوته - وهذا ما حدث فعلاً-، وقريش تدرك جيداً معنى هذا، وأنه يعني انعتاق الدعوة من القمقم الذي كبلتها فيه، وقيام دولة الإسلام التي ستنتزع منها السلطان الديني، وتحاربها حتى تؤمن بالله ورسوله، وتخضع لحكم الإسلام.

وإذا كان من الواضح علاقة العرض على القبائل بالجهر بالدعوة، فإن هذه المرحلة من علنية الدعوة، والتماس الناصر لها، هي مرحلة مهمة، وتحول كبير في مسار الدعوة؛ ولذلك خلعت قريش جلباب الحياء والمروءة يوم راح بعض رجالاتها يلاحقون الرسول صلى الله عليه وسلم في الأسواق والمواسم ويومئون إليه، ويرمونه بالكذب، ويحذرون العرب من اتباعه.

وكان من الآثار العظيمة لهذه المرحلة: لقيا الرسول صلى الله عليه وسلم للأنصار، وبيعتا العقبة، ثم الهجرة وتكوين الدولة.

3- فرض الدعوة - بطريقة تدريجية- باعتبارها أمرًا واقعًا:

وخلال مكث الدعوة بمكة، وعلى رغم العنت الذي تلقاه هناك، ورغم الضعف والقلة والذلة، فإنها كانت تنازل الجاهلية وتصارعها، وتخطو في ذلك خطوات ثابته، هادئة، لا تعرف التراجع؛ بل تتقدم باستمرار.

ومن أبرز الأعمال الحكيمة الجريئة التي كان يعملها المسلمون، في مواجهة الغربة المحيطة بهم: التدرج في فرض الدعوة باعتبارها أمرًا واقعًا في مكة لا يمكن تجاهله، واختطاط مجرى ثابت للإسلام.

وهذا لا يمكن أن يتم بسهولة، ولكنه يمكن أن يتم، ولنعرض الآن لبعض النماذج التي توضح ذلك؛ لتظهر النتيجة وكيف صارت قريش تنظر إلى الدعوة.

فبعـد أن أعلـن الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم دعـوته صـار المسـلمون يحرصـون بيـن الفينة والفينة أن يستعلنوا بصـلاتهم، أو قراءتهـم للقرآن، أو أن يعلن الفرد الـداخل إسـلامه علـى الملأ، أو أن يخرجوا في مجموعـة واحـدة تظهـر الإسلام وتصرخ به في أرجاء مكة.

ففـي حـديث عائشـة فـي قصـة أبـي بكـر وخروجه من مكة، وإرجاع ابن الدغنـة لـه، قـالت: "..فلبـث أبـو بكـر بـذلك يعبـد ربـه فـي داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدًا بفناء داره، وكـان يصـلي فيـه، ويقـرأ القـرآن، فينقـذف إليـه نسـاء المشـركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه، وينظرون إليـه، وكـان أبو بكر رجلاً بكّاء، لا يملك عينيـه إذا قـرأ القـرآن، فـأفزع ذلـك أشـراف قريـش مـن المشـركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهـم فقـالوا: إنـا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك، فـابتنى مسـجدًا بفنـاء داره، فأعلن بالصلاة والقـراءة فيـه، وإنـا قـد خشـينا أن يفتن نساءنا، وأبناءنا، فانهه، فإن أحـب أن يقتصـر على أن يعبد ربـه فـي داره فعـل، وإن أبـى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك، ولسـنا مقريـن لأبـي بكـر الاسـتعلان، قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدتُ لك عليه، فإمـا أن تقتصـر على ذلك، وإما أن ترجِع إليّ ذمتي؛ فـإني لا أحـب أن تسمع العرب أني أُخفِرت في رجل عقدت لـه! فقال أبـو بكـر: فـإني أرد إليـك جـوارك، وأرضـى بجوار الله عز وجل[22]..

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما بلغ أبا ذر مبعثُ النبي صلى الله عليه وسلم (فساق الحديث وفيه قصة إسلام أبي ذر إلىقوله): فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: **ارجع إلى قومك، فأخبرهم حتى يأتيك أمري**. قال: والذى نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم! فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله!.

ثم قام القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكبّ عليه، وقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار؟ وأن طريق تجاركم إلى الشام؟ فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوه وثاروا إليه، فأكب العباس عليه[23].

وقد يظهر من صنيع أبي ذر رضي الله عنه العفوية وعدم القصد والتخطيط، ولكن هذه الحادثة وأمثالها بدأت تفرض على قريش الشعور بأن الإسلام واقع نام متزايد، لا سبيل إلى تجاهله، وإن لجت في طغيانها حينًا من الدهر.

وكان لإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه أثر كبير في تعزيز موقف المسلمين، وتوهين موقف قريش، إذ كان عمر من أشد الناس على المسلمين، وأكثرهم ضراوة في حرب الإسلام -بما عرف عنه من القوة والبأس- فلما أسلم، وصارت قوته ردءًا للمسلمين، ترنح موقف المشركين واهتز، وقوي به المسلمون، وعز جانبهم.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر[24].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما في خبر إسلام أبيه قال: بينما هو في الدار خائفًا إذ جاءه العاص بن وائل السهمي، أبو عمرو، عليه حلة حِبَرَةٌ، وقميص مكفوف بحرير، وهو من بني سهم، وهم حلفاؤنا في الجاهلية، فقال له: ما بالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني، إن أسلمت! قال: لا سبيل إليك. بعد أن قالها أمنت[25]، فخرج العاص، فلقي الناس قد سال بهم الوادي، فقال: أين تريدون؟ فقالوا: نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ، قال: لا سبيل إليه. فَكَرَّ الناس[26].

ورواية الحاكم للقصة ذات دلالة قوية على المقصود، وفيها:

"قاتل عمر المشركين في مسجد مكة، فلم يزل يقاتلهم منذ غدوة حتى صارت الشمس حيال رأسه[27]! قال: وأعيى وقعد، فدخل عليه رجل عليه برد أحمر وقميص قومَسِيٌ، حسن الوجه، فجاء حتى أفرجهم، فقال: ما تريدون من هذا الرجل؟ قالوا: لا والله إلا أنه صبأ، قال: فنعم. رجل اختار لنفسه دينًا فدعوه وما اختار لنفسه، ترون بني عدي ترضى أن يقتل عمر؟. والله لا ترضى بنو عدي قال: وقال عمر يومئذ: يا أعداء الله! والله لو قد بلغنا بثلاث مئة لقد أخرجناكم منها"[28].

وفي رواية ابن إسحاق في السير والمغازي -بإسناد حسن- اختيار عمر لجميل بن معمر الجمحي وكان ممن يشيع الحديث وإخباره بإسلامه، ومبادرة قريش لعمر بالقتال حتى عيّ وجلس وهم مُعَرِّشون على رأسه فيتم وهو يقول: اصنعوا ما بدا لكم، فأقسم بالله لو قد كنا ثلاث مئة رجل لقد تركتموها لنا أو تركناها لكم[29]..!

ولا يمكن التقليل من أهمية الحلف الـذي دفـع العاص بن وائل إلى حماية عمر والدفاع عنه، ولكن ثمة أمر آخر سرى في قريش كلها، هو الشعور بأهمية الإسلام، وأن القضية لم تعد قضـية أفراد مستضعفين، يصـهرون بالرمضـاء، ويعـذبون بغيـر حـق.. فهـاهم صـناديد الكفـر يـتراجعون، ويسـلمون، ويتـابعون محمـدًا صـلى اللـه عليـه وسلم، ثم لا يرضون حتى يعلنوها مدوية في أرجاء مكـة، ويهـددون قريشًـا بـأنهم سيفاصـلونهم، ويزايلونهم، حتى يخرج الأضعف منهما من مكة!.

ولا شك أن تكرار الحادثة -أيَّ حادثة- يقلل من غرابتها ويجعلها طبعية معتادة، ويفتح أمام كثير من الأذهان مجال إعادة النظر في المواقف المعارضة المتعنتة.

وسـبق إسـلام عمـر إسـلام حمـزة بـن عبـد المطلب - وكان عزيزًا منيعًا في قومه - فعـز بـه الرسول صلى الله عليه وسلم وامتنع، وعرفت قريش أن حمزة سيمنعه، فكفـوا عـن بعـض مـا كانوا ينالون منه[30].

عن الأرقـم -وكـان بـدريًا- رضـي اللـه عنـه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم آوى فـي داره عنــد الصــفا حــتى تكــاملوا أربعيــن رجلاً مسلمين، وكان آخرهم إسلامًا عمر بن الخطـاب رضي الله عنهم فلما كـانوا أربعيـن خرجـوا إلـى المشركين[31].

ولعل المقصود بهؤلاء الأربعين من لم يهـاجر إلى الحبشة، وإلا فالمسلمون قبل عمر يزيــدون على ضعف هذا العدد[32].

وليـس بـدعًا أن تقـع هـذه المصـادمات مـع المشــركين مــن عمــر، فمثــل عمــر فــي قــوة شكيمته، وشدة طبعه، وقوته في الحق، لا يملـك السكون على الباطل ساعة من نهـار، ولا يملـك الصمت أو الاستسرار.

والإشارة إلى هذه الأحـداث مـن إسـلام عمـر وحمزة، وإعلان عدد من الصحابة لإيمانهم، وفشــو أخبار المسلمين، وتحولها إلى أخبـار شـبه مألوفـة في بيئة مكة، وأنها سببت لقريـش الإذعـان للأمـر الواقـــع، لا يعنـــي أن قريشًـــا ألقـــت الســـلاح واستسلمت، كلا. بل لقد دعاها كبرياؤها إلى خطـة أكثر خبثًا وأوسع وأشمل، وهي خطة الحصـار فـي الشعب[33]، ولكن هذا العمل يخفي وراءه نفسيات مهتزةَ تتخوف كل ساعة أن تفاجأ بإسلام رجل من رجالات قريش؛ بل لعل إقدام قريش على هذا العمل دليل على تضاعف شعورها بخطـر الإسـلام وازدياد مخاوفها منه[34]، ولعلهـا الصـرخة المدويـة الأخيرة من قريش في وجه الإسلام الزاحف! ومـا بعدها إنما هي صرخات واهنة ضعيفة، أو رجع أصداء لتلك الصرخة المدوية.

ولا شـك أن المتأمـل يجـد فرقًـا هـائلاً بيـن طبيعة المواجهة مع الإسـلام فـي سـنيه الأولـى، وبينها في السنة التاسعة وما بعدها، حيـث انضـم عمر بعد حمـزة إلـى ركـب الإيمـان. وفشـا أمـر الإسلام - نسبيًا- في مكة.

4- بيعــة الأنصــار، والهجــرة، وبنــاء الدولة:

على رغم ما تقدم من نماذج ظهور الـدعوة، إلا أن الطابع العـام أنّ المـؤمنين بالـدعوة كـانوا نُزَّاعًا مـن القبائـل متفرقيـن، وكـانوا غربـاء بيـن قومهم يعانون من آلام الغربة ما يعـانون - علـى مواجهاتهم السابقة لها، وتخفيفهـم مـن حـدتها-، وكان قائـدهم محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم كذلك غريبًا بين أهله وعشيرته - مع حمايـة اللـه له، وانتشار دعـوته بعـض الانتشـار؛ ذلـك أن لـم يكن للإيمان وطن يفيء إليه، ولا للمؤمنين قبيلة تدفع عنهم، وتحميهـم. فكـان النـبي صـلى اللـه عليه وسلم يوصـي مـن أسـلم مـن خـارج مكـة خاصة أن ينتظر ظهوره عليه السلام، فإذا سـمع باستقراره بمهجر فليـأت إليـه، كمـا فـي حـديث عمرو بن عبسة وأبي ذر رضي الله عنهما[35].

وكان –صلى الله عليه وسلم- معنيًـا بـالبحث عن قبيلة تسمح بنشر الدعوة بيـن ظهرانيهـا، أو تعلن إيمانها بالدعوة وحمايتها لها، ومن أجل ذلك كان يعرض نفسه على القبائل.

وكـان مـن توفيـق اللـه لـدعوته أن المدينـة المنـورة كـانت تعيـش ظروفًـا خاصـة ترشـحها لاحتضـان دعـوة الإسـلام، وتجتمـع فيهـا عناصـر عديدة، لا تجتمع في غيرها:

(أ) منها التشـاحن والتطـاحن الموجـود بيـن قبيلـتي المدينـة: الأوس والخـزرج، وقـد قـامت بينهما الحرب الطاحنة كيوم بعاث وغيره.

وقد أفنت هذه الحرب كبار زعمـائهم، ممـن كان نظراؤهم في مكة والطائف وغيرهمـا حجـر عثرة في سـبيل الـدعوة، ولـم يبـق إلا القيـادات الشابة.. الجديدة المستعدة لقبول الحق، إضافة إلـى عـدم وجـود قيـادة بـارزة معروفـة يتواضـع الجميع على التسليم لها، وكانوا بحاجة إلـى مـن يأتلفون عليه، ويلتئم شملهم تحت ظله.

فكان يوم بعاث أمـرًا قـدمه اللـه تعـالى لنـبيه صلى الله عليه وسلم، فقدم وقد افترق ملـؤهم، وقتلت سـرواتهم، وجرحـوا، فقـدمه اللـه لرسـوله صلى الله عليه وسلم، في دخـولهم فـي الإسـلام، كما تقول عائشة رضي الله عنها[36].

(ب) ومنها مجاورتهم لليهود مما جعلهم على علم -ولو يسير- بأمر الرسالات السماوية، وخبر المرسلين السابقين، وهم - في مجتمعهم- يعايشون هذه القضية في حياتهم اليومية، وليسوا مثل قريش التى لا يساكنها أهل كتاب، وإنما غاية أمرها أن تسمع أخبارًا متفرقة عن الرسالات والوحي الإلهي، دون أن تلح عليها هذه المسألة، أو تشغل تفكيرها باستمرار.

وكان اليهود يهددون الأوس والخزرج بنبي قد أظل زمانه، ويزعمون أنهم سيتبعونه، ويقتلونهم به قتل عاد وإرم!، مع أن الأوس والخزرج كانوا أكثر من اليهود[37].

وقد حكى الله عنهم ذلك في كتابه، فقال: (**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللـه مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ الله عَلَى الْكَافِرِينَ**)[38].

وكان الأوس والخزرج قد علوا اليهود دهرًا في الجاهلية، وهم أهل الشرك، وهؤلاء أهل الكتاب، فكانوا يقولون: إن نبيًا قد أظل زمانه، يقتلكم قتل عاد وإرم[39].

فلما أراد الله إتمام أمره، بنصـر دينـه، قيـض ستة نفر من أهل المدينة، للنبي صلى الله عليـه وسـلم فـالتقى بهـم عنـد العقبـة - عقبـة منـى- فعـرض عليهـم الإسـلام، فاستبشـروا وأسـلموا، وعرفوا أنه النبي الذي توعدهم به اليهود، ورجعوا إلى المدينة، فأفشوا ذكر النبي صلى اللـه عليـه وسلم في بيوتها[40]. وكـان هـذا هـو "بـدء إسـلام الأنصار" -كما يسميه أهل السير[41].

حـتى إذا كـان العـام التـالي وافـى الموسـم ضعف العدد الأول - اثنا عشر رجلاً من المؤمنين - فبايعهم النبي صلى اللـه عليـه وسـلم علـى ألا يشـركوا بـالله شـيئًا، ولا يسـرقوا، ولا يزنـوا، ولا يـأتوا ببهتـان يفـترونه بيـن أيـديهم وأرجلهـم، ولا يعصوه في معروف.

عن عبادة بن الصامت رضـي اللـه عنـه قـال: إنى لمن النقباء الذين بايعوا رسول الله صلى اللـه عليه وسـلم وقـال: بايعنـاه علـى ألا نشـرك بـالله شيئًا، ولا نزني، ولا نسرق، ولا نقتـل النفـس الـتي حرم الله إلا بالحق، ولا ننتهب، ولا نعصـي. فالجنـة إن فعلنا ذلك، فإن غشينا[42] مـن ذلـك شـيئًا كـان قضاء ذلك إلى الله[43].

وبنود هذه البيعة هي التي بايع الرسول صلى الله عليه وسلم عليها النساء فيما بعد، ولذلك عرفت باسم " بيعة النساء"[44].

ولذلك جاء في رواية ابن إسحاق لحديث عبادة بإسناده: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على ألا نشرك بالله شيئًا... الحديث[45].

وقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم مع المبايعين مصعب بن عمير يعلمهم الدين، ويقرؤهم القرآن، فكان يسمى بالمدينة "المقرئ"، وكان يؤمهم في الصلاة[46].

ولقد اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم عن علم بشخصيته من جهة، وعلم بالوضع القائم في المدينة من جهة أخرى، حيث كان رضي الله عنه - بجانب حفظه لما نزل من القرآن- يملك من اللباقة، والهدوء، وحسن الخلق والحكمة، قدرًا كبيرًا، فضلاً عن قوة إيمانه، وشدة حماسه للدين؛ ولذلك تمكن خلال أشهر أن ينشر الإسلام في سائر بيوتات المدينة، وأن يكسب للإسلام أنصارًا من كبار زعمائها، كسعد بن معاذ، وأسيد بن الحضير، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهم[47].

ولما أقبل الموسم خرج عدد كبير من المسلمين في حجاج قومهم، وواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعب الذي عند جمرة العقبة، والتقى به ما يزيد على السبعين منهم لقاءً سريًا، وكانت الصورة في أذهان المبايعين أكثر وضوحًا حيث أدركوا -بعمق- معنى بيعتهم للرسول صلى الله عليه وسلم وأنها مفاصلة للعرب كافة؛ بل للناس كافة، وتعرض للقتال والقتل، فهى - بلغة العصر - "بيعة مصيرية".

وكانت بنودها كما يلي:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنــه قــال: دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعنا فقــال -فيما أخذ علينا-: أن بايعنا على السمع والطاعــة، في منشطنا، ومكرهنا، وعسرنا، ويســرنا، وأثــرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرًا بواحًــا عندكم من الله فيه برهان.

وفي رواية:" وأن نقــول بــالحق حيثمــا كــان لا نخاف في الله لومة لائم"[48].

وقد تضمنت شروط البيعة - أيضًا- البيعة علــى أن ينصروا النبي صلى الله عليه وسلم إذا قدم عليهــم "يــثرب" وأن يمنعــوه ممــا يمنعــون منــه أنفسهم وأبناءهم[49] وكانت هذه البيعة تسمى: بيعة الحرب، وهي تسمية معبرة ذات دلالة عميقة.

وقد روى ابن إسحاق عن عبادة قــال: بايعنــا رسول الله صلى الله عليه وســلم بيعــة الحــرب، علــى الســمع والطاعــة فــي عســرنا ويســرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثره علينا، وألا ننــازع الأمــر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم[50].

وثمة رواية مهمة جمعت أخبار البيعتين، وهي رواية جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ومجنة[51] وعكاظ[52]، ومنازلهم من منى: من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي فله الجنة، فلا يجد أحدًا ينصره ولا يؤويه حتى إن الرجل ليرحل من مضر أو من اليمن إلى ذي رحمه، فيأتيه قومه فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفتننك، ويمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله عز وجل يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله من يثرب، فيأتيه الرجل منا فيؤمن به، ويقرؤه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، وبعثنا الله إليه فائتمرنا واجتمعنا وقلنا: حتى متى رسول الله صلى الله عليه وسلم يُطرد في جبال مكة ويخاف؟ فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم، فواعدنا بيعة العقبة، فقال له عمه العباس يا ابن أخي: لا أدري ما هؤلاء القوم الذين جاءوك؟ إني ذو معرفة بأهل يثرب، فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين، فلما نظر العباس في وجوهنا قال: هؤلاء

قوم لا نعرفهم، هؤلاء أحداث!! فقلنـا: يـا رسـول الله، علام نبايعـك؟ قـال: تبـايعوني علـى السـمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخـذكم لومـة لائــم، وعلــى أن تنصــروني إذا قــدمت عليكــم وتمنعوني مما تمنعون منـه أنفسـكم، وأزواجكـم، وأبناءكم، ولكم الجنـة، فقمنـا نبـايعه، وأخـذ بيـده أسعد بن زرارة - وهو أصغر السبعين- إلا أنه قال: رويدًا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجـه اليـوم مفارقة العرب كافة، وقتـل خيـاركم وأن يعضـكم السيف[53].

فإما أنتـم قـوم تصـبرون عليهـا إذا مسـتكم، وعلـى قتـل خيـاركم، ومفارقـة العـرب كافـة، فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون مــن أنفسـكم خيفـة فـذوره فهـو عـذر عنـد اللـه عـز وجل!

فقالوا: يا سعد، أمط عنا يدك، فـوالله لا نـذر هذه البيعة، ولا نستقيلها، قـال: فقمنـا إليـه، رجلاً رجلاً، فأخذ علينا، ليعطينا بذلك الجنة[54].

وقد ساق ابن إسحاق رواية طويلة عن كعب بن مالك في خروج حجاج الأنصار المسلمين، مع قومهم المشركين واستقبال البراء بن معرور رضي الله عنه للكعبة، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم له: لقد كنت على قبلة، لو صبرت عليها، وفيها تفصيلات وافية مفيدة لأحداث البيعة.

قال كعب: ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة، من أوسط أيام التشريق، قال: فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام، أبو جابر، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه، وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه، أن تكون حطبًا للنار غدًا، ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إيانا العقبة، قال: فأسلم، وشهد معنا العقبة، وكان نقيبًا.

قال: فنمنا تلك الليلة، مع قومنا، فـي رحالنـا، حـتى إذا مضـى ثلـث الليـل، خرجنـا مـن رحالنـا، لميعاد رسول الله صلى الله عليـه وسـلم نتسـلل تسـلل القطـا، مسـتخفين، حـتى اجتمعنـا فـي الشعب، عند العقبة، ونحـن ثلاثة وسـبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسـائنا: نسـيبة بنـت كعـب، أم عمارة، إحدى نساء بني مازن ابن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عـدي بـن نـابي، إحـدى نسـاء بنـي سلمة، وهى أم منيع، قال: فاجتمعنا في الشـعب، ننتظر رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم حـتى جاءنا، ومعه عمه العباس بن عبـد المطلـب، وهـو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضـر أمـر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلس كـان أول متكلـم العبـاس بـن عبـد المطلـب، فقـال: يـا معشـر الخزرج- قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها، وأوسها،: إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثـل رأينا فيـه، فهو فـي عز مـن قومه ومنعة فـي بلـده، وإنـه قـد أبـى إلا الانحيـاز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافـون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خـالفه، فـأنتم ومـا تحملتـم مـن ذلـك، وإن كنتـم تـرون أنكـم

مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده، فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم - يا رسول الله- فخذ لنفسك، ولربك ما أحببت.

قال: فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال: **أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم،** قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم. والذي بعثك بالحق نبيًا، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا - يا رسول الله- فنحن - والله- أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر.

قال: فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم- أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها - يعني اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: **بل الدمُ الدمُ، والهدمُ الهدمُ**[55]**، أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.**

قال كعب بن مالك: وقد كان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبًا؛ ليكونوا على قومهم بما فيهم**، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبًا، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس[56].

وفي هذه البيعة عاهد الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإيواء، والحماية، والنصرة، والمنعة.

وبهذا انتهى عهد التشريد والتطريد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه رضي الله عنهم وبدأ عهد الاستقرار، والاستعداد للقتال، ونشر الدعوة في جميع بقاع الأرض.

يقول إمام المغازي، محمد بن إسحاق: "وكانت بيعة الحرب، حين أذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في القتال، شروطًا سوى شرطه عليهم في العقبة الأولى، كانت الأولى على بيعة النساء، وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله صلى الله عليه وسلم في الحرب، فلما أذن الله له فيها، وبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة الأخيرة، على حرب الأحمر والأسود، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة[57].

وسواء كان الإذن بالحرب والقتال، جاء قبل الهجرة، كما هو رأي عروة بن الزبير وغيره[58]، أو كان بعد الهجرة، كما هو ظاهر سياق الآيات، في قوله تعالى: **(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ▪ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّه)**[59].

سواء كان هذا، أو ذاك، فإن بدء الجهاد كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بهذه البيعة. وهذا سر تسميتها ببيعة الحرب.

ففي البيعة الأولى كان الإيمان بالله ورسوله.

وفي البيعة الثانية كان العهد على "الهجرة" و"الجهاد".

وبهذه العناصر الثلاثة: الإيمان، والهجرة، والجهاد، يتحقق وجود الإسلام في واقع جماعي ممكن.

والهجـرة لـم تكـن لتتـم لـولا وجـود الفئـة المستعدة للإيواء، ولهذا قال تعـالى: **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَهَـاجَرُوا وَجَاهَـدُوا بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ فِـي سَـبِيلِ اللـه وَالَّـذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِـكَ بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْـضٍ)**[60]، وقـال: **(وَالَّ ذِينَ آمَنُ وا وَهَ اجَرُوا وَجَاهَ دُوا فِـي سَـبِيلِ اللـه وَالَّـذِينَ آوَوا وَنَصَـرُوا أُولَئِـكَ هُـمُ الْمُؤْمِنُـونَ حَقًّـا لَهُـمْ مَغْفِـرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)**[61]، وقال: **(وَالَّذِينَ آمَنُـوا مِـنْ بَعْـدُ وَهَـاجَرُوا وَجَاهَـدُوا مَعَكُـمْ فَأُولَئِـكَ مِنْكُمْ)**[62] في آيات أخرى كثيرة.

ول م تك ن البيع ة والهج رة والجه اد لتت م ل ولا انسـلاخ المـؤمنين الجـدد مـن ولائهـم القبلـي والـوطني، للـولاء الشـرعي، وتركهـم لقيـاداتهم العشائرية إلى القيادة الإسـلامية الواحـدة؛ ولـذلك جاء النص في البيعة علـى أن الـدم الـدم، والهـدم الهدم، على إثر قول الأنصار: إن بيننا وبي ن الق وم- يعني اليهود- حبالاً، وإنا قاطعوها.

وقد كانت هذه البيعة هي التمهيد الأخير لهجرة النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم وأصـحابه إلـى المدينة، وبعدها بدأ المهاجرون يغادرون أرض مكـة التي درجوا عليها صغارًا، وشهدت ربوعها ومغانيهـا مراتع صباهم ولهوهم، بدؤوا يغادرون الأرض الـتي اختارها الله لتنـزل وحيـه، وجعـل فيهـا بيتـه مثابـة للناس وأمنًا!.

وخـرج معظـم المسـلمين حـتى لـم يبـق إلا محبوس، أو مأسور، أو رجل تأخر لغـرض كعلـي بن أبي طـالب، وأبـي بكـر الصـديق رضـي اللـه عنهما[63].

أما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد تأخر ينتظر الإذن الإلهي، وطلب إلى أبي بكر رضي الله عنه أن يكـون رفيقـه وصـاحبه، وحيـن جـاءه الإذن خـرج إلـى المدينـة مسـتخفيًا عالمًـا بمـا سيصـيب قريشًا من الهلع والفزع إذا علمت بخروجـه، حـتى وصل المدينـة بعـد رحلـة شـاقة مليئـة بالمخـاطر والشدائد والأهوال[64].

وإن مـن أعظـم مظـاهر التضـحية فـي هـذه الهجرة أن يغادر النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم والمؤمنون هذا البلد الأمين الحبيب إلى قلـوبهم - بل وإلى قلوب جميع المسلمين- مغادرة يعلمـون أن لا اس تقرار لهـ م فيـ ه بعـ دها، وهـ ذا مـ ن أشـ ق الأمــور علــى النفــس، ولكــن رجــال العقيــدة يرخصون في سبيلها كل غال.

ولقد عبر النبي صلى الله عليه وسـلم عـن هذا المعنى - معنى صعوبة مغادرة مكة وفراقهـا فراقًا لا سكنى بعده - في العديـد مـن المواقـف المؤثرة.

عن عبد لله بن عدي بن حمراء الزهري قال: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفًـا على الحَزْوَرة[65] فقال: **والله إنكِ لخيـر أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنـي أخرجت منك ما خرجت!"**[66].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لمـا قـدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر، وبلال، فكان أبـو بكـر إذا أخـذته الحمـى يقول:

كل امرئ مصبَّح في أهلـه والموت أدنى من شراك نعلـه

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرتـه، ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد، وحولي إذخـر، وجليـل؟

وهل أَرِدَن يومًا مياه مَجَنَّـة؟ وهل يبدون لي شامة، وطفيل؟[67]

قال: اللهم العن شيبة بن ربيعـة، وعتبـة بـن ربيعة، وأمية بن خلف، كما أخرجونـا مـن أرضـنا، إلى أرض الوباء!

ثم قال صلى اللـه عليـه وسـلم: **"اللهـم حبب إلينا المدينـة، كحبنـا مكـة أو أشــد، اللهم بارك لنا فـي صاعنــا، وفـي مـدّنا، وصــححها لنــا، وانقــل حماهــا إلــى الجحفة".**

قالت: "وقدمنا المدينة، وهي أوبأ أرض اللـه، قالت: فكان بطحـان[68] يجـري نجلاً، يعنـي: مـاء آجنًا[69]"[70].

وإنما يبين معنى التضحية حقًا حيث يقتلع الإنسان نفسه اقتلاعًا من وطنه؛ ليهاجر في ذات الله إلى حيث يشاء الله.

وبالبيعة المؤكدة الصريحة، ثم بالهجرة بعدها، وجد الإسلام موطنه الذي تنطلق منه دعاة الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، وتنطلق منه جحافل الحق المجاهدة أول مرة، وقامت الدولة الإسلامية، المحكمة لشرع الله في عباده، وهو الموطن الذي يرجع إليه الإسلام من بعد[71].

ولهذا صارت الهجرة إلى المدينة واجبة ذلك الوقت؛ لأنها أصبحت دار الإسلام، ومنطلق الدعوة، حيث بدأ التخطيط لعهد جديد من الكفاح الدائب في مواجهة المشركين، واليهود، والمنافقين.

لقد ولى التاريخ وجهه شطر المدينة المنورة يرقب حركة بناء الدولة الإسلامية الأولى، ثم حركة جهاد هذه الدولة لتثبيت أركانها، وتوسيع نطاقها، وإخضاع الناس لحكم الله عز وجل.

فالمدينة لم تكن مهربًا يلوذ به المسلمون من ظلم قريش وبطشها وتعذيبها إلى حيث الدعة والسكون! كلا. وأنى لأصحاب العقائد الحية الدعة والسكون؟!.

ولكنها كانت تحولاً إلى جبهة أخرى مهيأة لانطلاق الدعوة، ومواجهة الأعداء، وإظهار الدين.. ولو كره الكافرون.

ولقد استقبل المسلمون في المدينة عهدًا جديدًا من التضحيات الجسام بالنفوس والأموال، وحياة فيها الكثير من الجهد، والشدة، والفقر، والخوف، والنقص في الأموال، والأنفس، والثمرات، والأعداء كان بعض شأنهم أن يأتوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى تزيغ الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر، وكان هذا وذاك جزءًا من مواجهة الغربة الأولى، التي أخذ المؤمنون الأوائل على عواتقهم مدافعتها حتى تندفع - بإذن الله -.

5- القتال في سبيل الله:

لم يغب عن بال المسلمين لحظة أن دولتهم الفتية في المدينة لن تجري في ريح رخاء؛ بل ستمضي عليها سنة الله في خلقه، في ابتلاء بعض الناس ببعض.

ولم ينس المسلمون أن عـداوة المشـركين، الذين أخرجوهم من ديارهم، وأموالهم، بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا اللـه، لا تـزال قائمـة؛ بـل إنهـا تسير في المرحلة الجديدة جنبًـا إلـى جنـب، مـع عــداوة اليهــود الــذين يجــاورون الإســلام فــي المدينة، ومـع عـداوة المنـافقين المندسـين فـي الصف المسلم، والذين هـم أحبولـة مـن أحابيـل المكر اليهـودي للإسـلام - فـي غـالب أحـوالهم - ولذلك بدأ الرسول صلى الله عليـه وسـلم بعـد وصـوله المدينـة بعقـد المؤاخـاة بيـن المهـاجرين والأنصـار، وبنـاء المسـجد، وعقـد المعاهـدة مـع يهود[72].

(أ) والمؤاخاة تعنـي ذوبـان الفـوارق القبليـة بيــن المســلمين -مــن مهــاجرين وأنصــار- وانصهارهم جميعًا في كيان واحد، وأمـة واحـدة، فانتسابهم هو للإسلام قبل كل شيء.

وكان ابتداء المؤاخاة بين المهاجرين والأنصـار فــي أول الاســتقرار بالمدينــة، واســتمر يتجــدد بحسـب مـن يـدخل فـي الإسـلام، أو يحضـر إلـى المدينة[73].

فهذه هي اللبنة الأولى في طريق الجهاد، وهي العاصم الأول من التفرق والتمزق، والاستجابة لنزغ شياطين الإنس والجن، إضافة إلى أن بعض المسلمين كان أقوى من بعضهم الآخر، بالمال والعشيرة، وبالمؤاخاة يرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى[74].

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم آخى بين المسلمين في مكة، فآخى بين حمزة، وزيد بن حارثة[75]، وآخى بين الزبير وابن مسعود[76] في نفر - غيرهم-[77].

(ب) وبناء المسجد يعني توكيد الهدف الذي دعا الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه إلى تحمل المشاق، والهجرة في سبيل الله، وبناء هذا المجتمع، وهو تحقيق عبادة الله وحده، وهجر الرجز، وحرب أهله، وما الجهاد إلا جزء من معنى هذه العبادة؛ لتحقيق دينونة الناس لربهم، وإزالة الحواجز التي تعوق الناس عن الدخول في الإسلام، أو التي تفتن الناس عن دينهم بعد أن دخلوا فيه.

(جـ) والمعاهدة مع يهود تعني وضوح العلاقـة معهم، وتحديد موقفهم ومسؤوليتهم، وإخضـاعهم لحكم الإسلام، ثم محاسبتهم على جرائمهم -التي كان لابد أن تقع- بصورة تحفـظ كرامـة الإسـلام والمسلمين[78].

وقد بدأ النبي صلى اللـه عليـه وسـلم بعـد استقراره في المدينة يخطط للأعمـال الحربيـة، ويدرب أصحابه على فنون القتال ويبعث السرايا والبعـوث، لتثـبيت أمـن المدينـة، وتخويـف المتربصـين، وتهيئـة أصـحابه للمهمـات الـتي تنتظرهم، بعد أن أذن الله لهم في القتال بقوله:

(أُذِنَ لِلَّـذِينَ يُقَـاتَلُونَ بِـأَنَّهُمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللـه عَلَـى نَصْـرِهِمْ لَقَـدِيرٌ.الَّـذِينَ أُخْرِجُـوا مِـنْ دِيَـارِهِمْ بِغَيْـرِ حَـقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا الله وَلَـوْلا دَفْـعُ اللـه النَّـاسَ بَعْضَـهُمْ بِبَعْـضٍ لَهُـدِّمَتْ صَـوَامِعُ وَبِيَـعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَـا اسْـمُ اللـه كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ الله مَنْ يَنْصُـرُهُ إِنَّ اللـه لَقَـوِيٌّ عَزِيـزٌ.الَّـذِينَ إِنْ مَكَّنَّـاهُمْ فِـي الأَرْضِ أَقَـامُوا الصَّـلاةَ وَآتَـوُا الزَّكَـاةَ وَأَمَـرُوا بِـالْمَعْرُوفِ وَنَهَـوْا عَـنِ الْمُنْكَـرِ وَلله عَاقِبَةُ الأُمُورِ)[79].

فبعث النبي صلى الله عليه وسلم سلسلة من السرايا والبعوث والغزوات: كغزوة الأبواء[80]، وسرية عبيدة بن الحارث، وسرية حمزة، وغزوة بواط[81]، وغزوة العشيرة[82] وغيرها.

ولعل أهم الغزوات التي أحدثت أثرًا بعيدًا في حركة الإسلام ودفع الغربة عنه، وعن أهله: غزوة بدر، ثم الحديبية، ثم فتح مكة[83].

غزوة بدر:

وقـد خـرج المسـلمون لاعـتراض قافلـة أبـي سفيان التجارية، فشاء الله أن تفوتهم القافلة، وأن تخرج قريش لتقيم أيامًا في بدر، تنحر الجزور، وتشرب الخمر، وتعزف عليها القيان؛ وذلك لتدعيم مكانتها وهيبتها عند العرب.

وفضَل كثير من المؤمنين الرجوع إلى المدينة، ولكـن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى غير هذا، فاستشار أصـحابه، وكـأنه يريـد أن يسـتوثق مـن رأي الأنصار، إذ ربما يرون أن ليس عليهم نصـره ومنعه إلا في المدينة ذاتها.

فـرأى منهـم رضـي اللـه عنهـم الاستبسـال، والاندفاع، والطاعة المطلقة لرسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم ففـرح، واستبشـر، وبشَر أصحابه بالنصر المؤزر.

والتقى المسلمون -لأول مرة- وبدون اسـتعداد كافٍ؛ بسبب عنصر المفاجـأة، وتغيـر الموقـف مـع المشركين الذين يمثلون ثلاثة أضعافهم، وكان فيهم صناديد قريش قاطبة إذ لم يَسَع أحدًا منهم التـأخر عن الخروج خشية رميه بالجبن والخوف.

إن مجـــرد لقـــاء المســـلمين -مهـــاجريهم وأنصارهم، أوسهم وخزرجهـم- للمشـركين فيـه معان كبيرة؛ إذ لم تعد قريش تملك فرض الغربة والكربـــة علـــى مـــن أســـلم، فهـــاهم أولاء المستضعفون بمكة يأوون إلى المدينة، ويقيمون الدولـة، ويكونـون الجيـش، ويصـبح بمقـدورهم منازلة المشركين في ساحات القتال، وليس في مواقع التعذيب والإيذاء.

وهذا الموقع الـذي اختـاره اللـه لهجـرة نـبيه صلى الله عليه وسلم وأصحاب نبيه رضي اللـه عنهم هو في طريق تجـارة قريـش إلـى الشـام، فهو تهديد أكيد لتجارتها وقوافلها[84].

وهؤلاء الأوس والخـزرج الـذين كـانوا أقـرب الناس إلى قريش، وأبغض الناس أن تثـور بينهـم وبينهم الحرب[85]، ها هـم يخوضـونها ابتـداء إلـى جوار الرسول الذي أخرجته قريش وآذتــه صــلى الله عليه وسلم.

إن الإنسان يحتاج لكي يدرك التقدم العظيـم السريع الذي أحرزته دعوة الإسـلام أن يسـتجمع في ذهنه صورة المسلمين الغرباء المعذبين فـي مكة ونظرة قريش إليهـم، ثـم يقارنهـا بالصـورة الجديـدة: جيشـين متقـابلين يسـتعد كـل منهمـا للقاء الآخر.

وقد شعر المسلمون بخطورة هذه المعركة، وأهميتها البالغة فشحذوا هممهم، واستجمعوا قواهم؛ لشق طريق لنصر الإسلام عبر الصخور والصعاب، يبدأ من هذا اليوم، وكان صلى الله عليه وسلم يجأر إلى الله بالدعاء حتى يسقط رداؤه، ويشفق عليه أبو بكر، وهو يقول: **اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد بعد اليوم**[86]!.

وتدور المعركة، ويضرب المسلمون من أمثلة البطولة والفداء ما تعجز عن وصفه الأقلام... وما هو إلا قليل حتى ترجح كفة المسلمين، وتدور الدائرة على المشركين، ويقتل الله سبعين من صناديدهم، ويؤسر منهم ما يقارب هذا العدد[87].

وحين سرى هذا الخبر في الناس لم يكد يصدقه أحد، فقد قابلت قريش طلائع الخبر بالهزء والسخرية، فهي تنتظر استئصال شأفة المسلمين، كما قابله اليهود بالاستنكار والرد، ولم يكد يصدقه المسلمون المقيمون بالمدينة.

ولقـد هـال النـاس أن ينعـى إليهـم فـي غـداة واحـدة سـبعون، فيهـم زعمـاء كبـار، كـأبي جهـل، وعتبة وشيبة -ابني ربيعة-، والوليد بن عتبة، وعقبة بن أبي معيط، وطعيمة بن عدي، وأبي البختري بن هشام، والنضر بن الحارث، والأسود بن عبد الأسد، ونـبيه ومنبـه -ابنـي الحجـاج-، وأميـة بـن خلـف.. وغيرهم[88].

وقد ساق علي رضي الله عنه مقدمات الغزوة، وأحداثها، بسياق طويل مفصل -بعض التفصيل- فقال: لما قدمنا المدينة أصبنا من ثمارها، فاجتويناها، وأصابنا بها وعك، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخبر عن بدر، فلما بلغنا أن المشركين قد أقبلوا، سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر -وبدر بئر- فسبقنا المشركون إليها[89]، فوجدنا فيها رجلين منهم: رجل من قريش، ومولى لعقبة بن أبي معيط، فأما القرشي فانفلت، وأما المولى فوجدناه، فجعلنا نقول له: كم القوم؟ فيقول: هم والله كثير عددهم، شديد بأسهم. فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه حتى انتهوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: **كم القوم**؟ قال: هم -والله- كثير عددهم، شديد بأسهم، فجهد النبي صلى الله عليه وسلم أن يخبره: **كم هم**؟ فأبى، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم سأله: كم ينحرون من الجزور؟ فقال: عشرًا كل يوم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **القوم ألف، كل جزور لمئة وتبعها**.

ثـــــم إنـــــه أصـــــابنا مـــــن الليـــــل طَـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــش[90] من مطر، فانطلقنا تحت الشجر والحَجَف[91] نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ربه، ويقول: **اللهم إنــك إن تُهلك هذه الفئة لا تعبد**!.

فلما طلع الفجر، نادى: **الصلاةَ** -عبادَ اللــه-، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف[3]، فصلى بنا رسول الله صلى الله عليــه وســلم وحــرض على القتال، ثم قال: إن جمع قريش تحــت هـذه الضلع الحمراء من الجبل.

فلمـا دنـا القـوم منـا، وصـافقناهم، إذا رجـل منهم على جمل له أحمر، يسير في القوم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **يا علي نادِ لي حمزة** -وكان أقربهم مــن المشــركين- **من صاحب الجمل الأحمر؟ وماذا يقول لهــم؟** ثم قال صلى الله عليه وســلم: **إن يكن فــي القوم أحـد يـأمر بخيـر فعسـى أن يكـون صاحب الجمل الأحمر**، فجــاء حمــزة، فقــال: هو عتبة بن ربيعة، وهو ينهى عن القتـال، ويقـول لهم: يا قوم إني أرى قومًا مستميتين، لا تصــلون إليهـم وفيكـم خيـر، يـا قـوم اعصـبوها - اليـوم- برأسي، وقولوا: جبن عتبة بن ربيعة! وقد علمتم أني لست بأجبنكم.

فسـمع بـذلك أبـو جهـل، فقـال: أنـت تقـول ذلك؟ والله لو غيرك يقولها لأعضضته، قــد ملأت رئتُك جوفَك رعبًـا! فقـال: إيـاي تعيـر يـا مصـفر إسته؟ ستعلم اليوم أينا الجبان!

قال: فبرز عتبة، وأخوه شيبة، وابنه الوليد، حمية، فقالوا: من يبارز؟ فخرج فتية من الأنصار ستة[92]، فقال عتبة: لا نريد هؤلاء، لكن يبارزنا من بني عمنا، من بني عبد المطلب. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **قم يا حمزة، وقم يا علي، وقم يا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب**.

فقتل الله عتبة، وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة، وجرح عبيدة، فقتلنا منهم سبعين، وأسرنا سبعين.

وجاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيرًا، فقال العباس: يارسول الله، إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح، من أحسن الناس وجهًا، على فرس أبلق ما أراه في القوم! فقال الأنصاري: أنا أسرته - يا رسول الله- فقال: **اسكت، فقد أيدك الله بملك كريم**.

فقال علي رضي الل ه عنه فأسرنا، وأسرنا من بني عبد المطلب: العباس، وعقيلاً، ونوفل بن الحارث[93].

ولقد خضد الله في هذا اليوم شوكة المشركين، وأرهب الأعداء من اليهود والأعراب المتربصين، وجعله بداية للانتصارات اللاحقة التي أحرزها المسلمون: **(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)**[94].

ودعاء الرسول صلى الله عليه وسلم السابق يوحي بأهمية يوم بدر وخطورة نتائجه، فإنه لو انهزم فيه المسلمون لم تقم لهم بعد قائمة، ولو أفنيت هذه العصابة لم يعبد الله في الأرض.

وهذا مفرق طريق في شأن الغربة، فإن الإسلام كان يتمثل في هذه الجماعة المنحازة إلى المدينة الغريبة بين أمم الأرض حينئذ، وهي الجزيرة المؤمنة في بحر الوثنية والشرك، فكان انتصار بدر ترسيخًا لموقع الدولة المسلمة، وتثبيتًا لقواعدها، ودفعًا لغربتها، وغربة المضحين في سبيلها.

وهكذا يصنع الله لدينه وأوليائه الصادقين ما يحفظهم به؛ ليحفظ بهم الدين[95].

غزوة الحديبية:

وهي تـأتي فـي الأهميـة بعـد بـدر، كمـا قـال الإمام الحافظ ابن عبد البر: "ليس فـي غـزوات النبي صلى الله عليه وسـلم مـا يعـدل بـدرًا أو يقرب منها إلا غزوة الحديبية..."[96].

وقد سماها الله تعالى: **(فَتْحًا مُبِينًـا)** فقـال: **(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا)**[97].

وعن أنس رضي الله عنه: إنا فتحنا لك فتحًـا مبينًا، قال: الحديبية[98].

وذلك أن النبي صلى الله عليـه وسـلم خـرج يريد العمرة، وساق معه الهدي، وسـار فـي نحـو ألـف وخمـس مئـة مـن أصـحابه[99]، فرفضـت قريش دخوله مكة، ثم اتفقـوا علـى الصـلح بعـد مفاوضات طويلة[100].

وكـان مـن النتائـج الخطيـرة لهـذه الغـزوة: اعتراف قريش بقـوة المسـلمين وكيـانهم حيـث فاوضتهم وصـالحتهم علـى بنـود معروفـة، وهـذا كان له أثر عظيم على القبائل العربية التي كانت تنتظر نتيجة المعركة بين الإسلام والوثنية لتحـدد موقفها.

ولذلك دخلت خزاعة - عقب الصلح - في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقده، كما دخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم[101].

وأبت قريش على النبي صلى الله عليه وسلم دخول البلد الحرام على أن له أن يأتي العام القادم فيدخلها بسلاح الراكب: السيوف في القرب، لا يدخلها بغيرها[102]، وهي تريد برد المسلمين عن مكة حفظ ماء وجهها.

وهذا الموقف زعزع مكانة مشركي قريش، وأكد أنهم ليسوا أهلاً لسدانة البيت وحمايته؛ بل هم يصدون عن المسجد الحرام، وما كانوا أولياءه، إذ قد ظهر للجميع من حال النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يأت لقتال؛ بل جاء معتمرًا، معظمًا للبيت.

وكانت سائر بنود الصلح نصرًا للإسلام في حقيقتها، وإن كان ظاهرها في صالح قريش - بادي الرأي -.

وفوق هذا فإن وضع الحرب بين الطرفين أتاح فرصة كبيرة لانتشار الإسلام، ودفع غربته، ومد سلطانه على القلوب.

فال الزهري: "فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر"[103].

قال ابن هشام: "والدليل على قول الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مئة، في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف"[104].

ولهذه الأسباب كلها كانت غزوة الحديبية تمهيدًا طبعيًا لفتح مكة.

6- المواجهة مع اليهود:

وقد شاء الله بحكمته البالغة أن تجاور يهود الإسلام في مقر دولته الأولى، وأن يكونوا أحد الأسباب الملحوظة لالتفاف الأنصار حول الإسلام، وبيعتهم للرسول عليه الصلاة والسلام، وقد حال الحقد، والحسد، والبغي، دون إسلام اليهود، ومتابعتهم للنبي العربي الذي يعرفون.

وبعد استقرار المسلمين في المدينة نظموا العلاقة مع اليهود منذ البداية وأذعن اليهود لحكم الإسلام وسلطانه، والتزموا بالإنفاق مع المؤمنين ما داموا محاربين، والدفاع عن المدينة ضد من دهمها، والرجوع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يحدث من شجار يخاف فساده والحفاظ على أمن المدينة[105].

ولم تبرز لليهود أية مواقف مشهورة خلال التحركات الأولى في المدينة، سواء قبل الهجرة أو بعدها، فعلى علم منهم أسلم من أسلم من الأنصار، ثم بايعوا البيعة الأولى، ثم استقدموا مصعبًا؛ لتعليمهم ونشر الدين بينهم، ولم تكن جهود مصعب في نشر الدعوة لتخفى عليهم، وكان موقفهم أقرب إلى السلبية.

ولعل هذا يشير إلى وجود جفوة بين الأوس والخزرج وبين اليهود خلال تلك الفترة، جعلت تأثير اليهود أقل من أن يعوق سير الدعوة، إضافة إلى قوة شأن الأوس والخزرج، وكثرتهم، وضعف اليهود إزاءهم[106].

وثمة سبب آخر وهو طبيعة اليهود التي تتعمد الدس الخفي، والكيد والطعن من وراء الظهــور، وتبرز هذه الطبيعة في حركة النفـاق، التَّـي كـان لليهود يد طولى في إنشائها، وإذكائها، والتخطيط لها.

وخاصة حين أدرك اليهود تعاظم مـد الإسـلام بعد موقعة بدر الحاسـمة، وقـد ذكـر اللـه علاقـة المنافقين باليهود في قوله: **(وَإِذَا لَقُوا الَّــذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)**[107].

أما عن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كان أول الأمر حريصًا على إسلام اليهود، وتأليف قلوبهم، باعتبارهم أهل كتاب، ولو آمنوا به صلى الله عليه وسلم لترتب على إيمانهم آثار بعيدة المدى، ولعله لذلك كان يحب موافقتهم أول الأمر فيما لم ينزل عليه فيه[108]، وظل صلى الله عليه وسلم يبذل النصح لهم، ويجيب على سؤالاتهم المتعنتة، ويحرص أن يفيد من إسلام بعض مخلصيهم؛ مثل عبد الله بن سلام وغيره، ولكن دون جدوى؛ بل إنهم أظهروا روح العداء للإسلام والمسلمين ونقضوا العهود والمواثيق التي أبرموها، وتحالفوا مع الوثنية ضد الإسلام، فأجلى الرسول صلى الله عليه وسلم قبيلتين منهم: بني قينقاع، وبني النضير، واستأصل شأفة بني قريظة، لعظم خيانتهم، وخطورتها، ثم قضى في غزوة خيبر على وجودهم السياسي في الحجاز نهائيًا.

كما خطط الرسول صلى الله عليه وسلم لاغتيال رؤوس الفتنة ومثيري الشغب فيهم، فأرسل مجموعات فدائية اغتالت كعب بن الأشرف ثم أبا رافع[109]، فذعر اليهود من ذلك وكفوا عن إساءتهم.

وبذلك أزاح المسلمون عقبة كـبيرة تعـترض طريق الدعوة، وإن كـان اليهـود لا يزالـون، ولـن يزالوا يخططون للقضاء على هذا الدين[110].

7- فتح مكة:

تتوجت الانتصارات الإسلامية بفتح مكـة فـي العام الثامن للهجرة، وقد كان هذا الفتـح مطلبًـا مهمًّا لدى المسلمين للأسباب التالية:

(أ) لأن مكـــة كـــانت معقـــل الوثنيـــة الأكـــبر، فسقوطها يعني الإجهاز عليهـا، واقتحـام آخـر حصونها، ولقد كانت العرب تتربص ما يــؤول إليه أمر قريش، فكانت غزوة الحديبيــة الـتي هزت موقف قريـش، وأضـعفت مكانتهـا، ثـم كان الفتح الذي أنهى كل تردد أو شك.

(ب) ولأنها البلد الذي أُخرج منه الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون وهو الذي كـان يتـولى كبر الحرب لهم، طيلة تلك المدة، فدخولهم إياه فاتحين يعني إنهاء أمد الحرب مع قريــش، التي طالما كابرت الحقائق، ولجت في العناد.

(جـ) ولمكة أهمية كبرى في الإسلام بحكـم وجـود الأماكن المقدسة، ومواضـع الحـج، وذكريـات النبوات السابقة، وبحكم اختيار الله لها لتنـزل وحيه أول الأمـر **(وَرَبُّكَ يَخْلُـقُ مَـا يَشَـاءُ وَيَخْتَارُ)**[111][112].

ويظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم منـذ غادر مكة مهاجرًا، كـان ينتظـر اليـوم الـذي يـأذن الله فيه بفتحها، ويتأكد هذا حيـن يـوجه اللـه نـبيه صلى الله عليه وسلم إلى استقبال الكعبـة فـي الصلاة، وفي هذا من الدلالة ما فيه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما - فـي قـوله تعـالى: **(إِنَّ الَّـذِي فَـرَضَ عَلَيْـكَ الْقُـرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)**[113]، قال: إلى مكة[114].

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسـلم ينتظـر الفرصة المواتية لفتح مكة، وتحريرها من سـيطرة المشركين، وإعادتها إلى المؤمنين الذين هم أحـق بها وأهلها.

فلمـا نقضـت بنـو بكـر وقريـش عهـدهم، واعتدوا على خزاعة، وقاتلوهم ولم يراعوا حرمة العهد والميثاق، ولا مكانـة الحـرم، واستصـرخت خزاعـة المسـلمين -بحكـم الحلـف[115]- اسـتعد الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم لفتـح مكـة، وفرض حصارًا على خبر هذا التحرك حـتى يبغـت قريشـًا، لضـمان النصـر وحقـن الـدماء، حـتى استطاع أن يفاجئ مكة بعسكر لم تـر مثلـه قـط في العدد والعدة المادية والمعنوية.

وقد فوجىء زعماء قريش بنيران العسكر تملأ الفضاء، فخرجوا يسـتطلعون الخـبر، فعـثرت عليهم خيل المسلمين، فاسـتاقتهم إلـى الرسـول صلى الله عليه وسلم وهم أبو سفيان، وبـديل بـن ورقـاء، وحكيـم بـن حـزام، فمـا لبثـوا أن أعلنـوا إسلامهم واستسلامهم، وسألوه الأمـان لقريـش فأمنهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة مجيء الزعماء الثلاثة، وإسلام أبي سفيان وتأمين قريش قال: فلما انصرف إلى مكة ليخبرهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احبسه بمضيق من الوادي، عند حطم الخيل حتى تمر به جنود الله، فحبسه العباس حيث أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمرت القبائل على ركبانها، فكلما مرت قبيلة قال: من هذه؟ فأقول: بنو سليم، فيقول: مالي ولبني سليم، ثم تمر أخرى فيقول: ما هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: مالي ولمزينة.

فلم يزل يقول ذلك حتى مرت كتيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الخضراء[116] فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق، قال: من هؤلاء. فقلت: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَل، ولا طاقة !، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا! قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة. قال: فنعم إذن[117].

وذهـب أبـو سـفيان مبهـورًا ليعلـن لقريـش الأمـان، لمـن دخـل دار أبـي سـفيان، أو دخـل المسجد، أو أغلق عليه بابه.

ولم يفكر أحد فـي المقاومـة إلا مـا كـان مـن صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهـل، وسـهيل بن عمرو في نفر من قريش، ولقـد لقيهـم خالـد بـن الوليـد فـي مُجَنِّبته[118] فناوشـوهم شـيئًا مـن قتـال ثـم انهزمـوا وقتل منهم من قتل.

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكـة متخشعًا متواضعًا متذللاً لله تعالى، حتى إذا وصـل البيت حطم الأصنام، ومحا التصاوير معلنًا سقوط آخر قلاع الوثنية، وانتصار التوحيد، وبسط سلطان الإسلام على الجزيرة العربية.

وكـان فتـح مكـة هـو الضـربة الأخيـرة الـتي أجهـزت علـى الإصـرار العنيـد الـذي تـذرع بـه القرشيون حينًا من الدهر، فاسـتيقظت عقـولهم وفطرهم على أصداء هذا الانتصار الأخير، فأسلم عامتهم - لا خضوعًا للسلطان فحسب، ولكـن لأن هذا الانتصار قد قشع عن نفوسهم غشاوة العناد، والتردد، والتعصب، وجعلهـم أمـام الحقيقـة وجهًـا لوجه.

وبفتح مكة أحكم المسـلمون السـيطرة علـى الجزيـرة العربيـة -عمومًـا- وزالـت غربـة الـدين، وغربـة أهلـه، إذ أصـبحوا سـادة الجزيـرة، وحمـاة المقدسات، حتى قال صلى الله عليـه وسـلم: "**لا هجرة بعـد الفتـح، ولكـن جهـاد ونيـة**"[119]، وصـارت جميـع القبائـل تسـعى إليهـم، وتخطـب ودهم، وتفكر تفكيرًا جادًّا في الدين الـذي جـاءوا به، فتؤمن أنه الحـق، بلا مريـة، فتـذعن لـه[120]؛ ولهذا برزت ظاهرة الوفود، حتى سـميت السـنة التاسعة: سنة الوفود.

قال ابن إسحاق: "وإنما كانت العرب تربـص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، وأمر رسـول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم وذلـك أن قريشًـا كانوا إمام الناس، وهاديهم، وأهل البيت الحـرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هـي التي نصبت لحرب رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم وخلافـه، فلمـا افتتحـت مكـة، ودانـت لـه قريش، ودوخها الإسلام، وعرفـت العـرب أنـه لا طاقة لهم بحرب رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم ولا عداوته، فدخلوا في دين الله، كما قـال عـز وجـل: **(أَفْوَاجًـا)**، يضـربون إليـه مـن كـل وجه"[121].

وقد كان من الوفود التي قدمت علـى النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم معلنـة الـولاء، والسـمع والطاعة، والإسلام: وفـد بنـي تميـم، ووفـد بنـي سعد بـن بكـر، ووفـد بنـي حنيفـة، ووفـد طيـء، ووفد بني زبيد، ووفد كندة.

واستعراض الوفـود يـبين أنهـا تمثـل معظـم القبائل العربية القاطنة في الجزيرة[122]. وهكـذا أصبح الغرباء المطرَّدون سـادة وأئمـة، وأورثهـم اللــه عــز وجــل أرض المشــركين، وديــارهم، وأموالهم، ومكَّن لهم في الأرض، وجعل الــدائرة على أعدائهم[123].

8- الأفق العالمي للدعوة:

ولقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على رسم بداية لنشـر الـدعوة الإسـلامية خـارج الجزيــرة العربيــة، ســواء عــن طريــق الــدعوة بالحسنى والكلمة الطيبـة، أو عـن طريـق بسـط نفوذ الدولة الإسلامية وتوسيع سـلطانها، والــذي يتم بالجهاد في سبيل الله.

فقد راسل صلى الله عليه وسـلم الملـوك والجبابرة يدعوهم إلى الله، ويبلغهم، خاصة بعــد الحديبية.

عن أنس رضي الله عنـه أن نـبي اللـه صـلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى، وإلى قيصــر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الله تعالى. وليس بالنجاشي الذي صـلى عليـه النـبي صلى الله عليه وسلم[124].

فبعث صلى الله عليه وسلم دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر، وعبد الله ابن حذافة السهمي إلى كسرى، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط، وغيرهم من الرسل إلى غيرهم من الملوك، كما كاتب –صلى الله عليه وسلم-، زعماء اليمن، وحضرموت، وبعض القبائل العربية التي تلبثت بإسلامها.

وكان لهذه الكتب أثر عظيم في نشر الإسلام حيث كان من هؤلاء الزعماء والملوك وأمراء القبائل مَن أسلم ودخل في الدين، وكان منهم من أعلن خضوعه لحكم الإسلام، ودخوله في طاعة الدولة، هذا إلى ما لها من أهمية في إعلان الإسلام في أطراف الجزيرة، وخارجها وإقامة الحجة على هؤلاء، وتبليغهم ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ليكون ذلك تمهيدًا لقتال من أبى الإسلام منهم.

وقد عمقت هذه المراسلات الشعور لدى المسلمين بضرورة تحقيق عالمية الإسلام تحقيقًا عمليًا، والانتقال بالدعوة إلى آفاق جديدة، ومواقع جديدة[125].

أمـا الجـانب العسـكري فقـد بعـث الرسـول صلى الله عليه وسلم بعثًا من أصحابه إلى مؤتــة، في مطلع السنة الثامنة للهجرة، وأمر عليهم زيــد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحــة، والتقــى المسـلمون مع جموع غفيرة من الروم ومن انضم إليهـم مـن قبائل لخم وجذام، وبَلْقَيْن، وبَلِي وغيرهم.

وقد اختلف المؤرخون: هل انتصر الروم؟ أو المسلمون؟ والذي رجحه ابـن إسـحاق أن خالـد بن الوليد لما أخذ الراية بعد مقتل الأمـراء الثلاثـة دافع القوم وحاشى بهـم، ثـم انحـاز وانحيـز عنـه حتى انصرف الناس[126].

ثم كانت غزوة تبوك في السنة التاسعة حيث خرج النبي صلى اللـه عليـه وسـلم بنفسـه لغـزو الروم وإحكام السيطرة على القبائل القاطنة في الشمال، فصالح صـاحب أيلـة[127] علـى الجزيـة، وكذلك أهل جرباء[128] وأذرُح[129].

وبعــث خالــد بــن الوليــد إلــى أكيــدر دومــة الجندل[130] فأخذه وجاء به إلى النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم فصـالحه علـى الجزيـة، ثـم قفـل الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم عائـدًا إلـى المدينة[131].

إن أهميـة هـاتين الغزوتيـن لا تقـاس بمـدى النصر المادي الذي أحرزتاه، أو النتائج العسكرية التي ترتبت عليها فحسـب؛ بـل إن مـداها أوسـع من ذلك فهي تأكيـد مـن النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم في حال حياته لما يريد أن يفعلـه خلفـاؤه من بعـده، مـن توسـيع رقعـة الدولـة الإسـلامية، وتنشـيط حركــة الفتــح وإخضــاع الــدنيا لحكــم الإسلام.

ولعل من العجيب أن يكون آخر بعث جهزه الرسول صلى الله عليه وسلم هو بعث أسامة بـن زيد إلى أرض فلسطين حيث تجهـز معـه النـاس، وأوعب معه المهاجرون الأولون[132].

وقد قبض النبي صلى الله عليـه وسـلم قبـل رحيل هذا البعث ليتولى تسـييره الخليفــة الأول، وفي هذا من الدلالة مالا يخفى.

زوال غربة الإسلام:

وفي نهاية هـذا العـرض العـام المجمـل لأهـم خطوات مواجهـة الغربـة الأولـى وإزالتهـا ودفعهـا؛ يتضـح للمتأمـل المسـافة البعيـدة الـتي قطعهـا المسلمون خلال سـنين وجيـزة مـن أعمـار الأمـم والجماعات، فخلال ثلاثة وعشرين عامًا -فحسـب- أعلنت الدعوة، ثم ظلت حبيسة بين جـوانب مكـة -غالبًا- مدة ثلاث عشرة سـنة، ثـم أقيمـت الدولـة وقضـي علـى المنـاوئين مـن المشـركين، واليهـود وغيرهم، وأخضعت الجزيرة لحكم الإسلام، وبـدأت المحـاولات الأولـى للقضـاء علـى دولـتي فـارس والروم وغيرهما - خلال عشر سنوات.

وهذا نصر لم يشـهد التاريـخ لـه مـثيلاً، - ولـن يشـهد -، خاصـة إذا تأملنـا البعـد العقـدي لهـذه الدولـة، إذ لـم تكـن دولـة الإسـلام دولـة جـبروت ترسي دعـائم ملكهـا علـى الجثـث والأشـلاء؛ بـل كانت دولـة رحمـة وهدايـة ترسـي دعائمهـا علـى عروش القلوب، فتلين لهـا النفـوس وتنقـاد؛ لأنهـا قامت لتحقيق عبوديـة النـاس لربهـم، وتحريرهـم من عبوديتهم للطواغيت المادية، أو المعنوية.

ولـذلك كـان جنودهـا مـن كـل الأجنـاس، والشـعوب، والأمـم، وكـانت البلاد المفتوحـة سرعان ما تؤدي دورها في حمـل الرسـالة بجـد، وحمـاس، حـتى سـيطر المسـلمون خلال مـدة وجيزة من الزمان على معظم أنحاء المعمورة.

ولقد تحول المسـلمون مـن قلـة مستضـعفة مقهورة إلى أئمـة يرثـون الأرض مـن بعـد أهلهـا، ويقودون ركب البشرية إلى حيث الأمن والإيمان، وحقق الله لهم ما سبق فـي سـنته الماضـية فـي الأمـم كلهـا مـن التمكيـن للصـالحين، ورفـع الاستضعاف عنهم. قال تعالى: **(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ▪ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)**[133].

وقال تعالى: **(وَعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)**[134].

وقال تعالى: **(هُوَ الَّـذِي أَرْسَـلَ رَسُـولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَـى الـدِّينِ كُلِّهِ)**[135].

كمـا حقـق اللـه تعـالى سـنته الماضـية فـي أعـدائهم ومنـاوئيهم، فـأذاقهم مـرارة الهزيمـة والقتـل المهيـن، وطـوى ذكرهـم وأخمـل شـأنهم حتى لا يذكرهم أحد إلا باللعنة والمقت، ومـا أعـد لهم من عذاب الآخرة أشد وأبقى.

عـن حذيفـة - رضـي اللـه عنـه - فـي قـوله تعالى: **(فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ)**[136].

قال: ما بقي من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة، ولا مـن المنـافقين إلا أربعـة. فقـال أعرابـي: إنكـم - أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم تخبروننـا، فلا نـدري، فمـا بـال هـؤلاء الـذين يبقـرون بيوتنـا، ويسرقون أعلاقنا؟ قال: أولئك الفساق. أجـل: لـم يبق منهم إلا أربعة، أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده[137].

وبهذا ارتفع شأن الإسلام واندحر شـأن الكفـر والنفاق، وتحقق للمسلمين ما وعد به الرسول صلى الله عليه وسلم حين كانوا يشتكون إليـه أذى قريش وظلمها وتعذيبها لهم، ويقولون ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ فيقول صلى الله عليه وسـلم: "**.. واللـه ليتمـن اللـه هـذا الأمـر حـتى يسـير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخـاف إلا اللــه، والــذئب علــى غنمــه، ولكنكــم تستعجلون**"(138).

إن اللــه عــز وجــل لابــد أن ينصــر عبــاده المؤمنين الصـادقين وهـو الـذي يحـدد - بعلمـه - الوقت الذي ينصرهم فيه، والحال التي ينصــرهم عليها.

ولم يكن هذا النصر الذي منحه الله للمؤمنين مرتبطًا بشخص أو أشخاص يزول بزوالهم؛ بل إن جــذوره لتضــرب فــي الأرض، وتقــاوم عــوادي الحدثان، على مر العصور، وكر الدهور.

فقد ظلت دولة الإسلام - رغم ما أصابها من انحرافات - قائمة ممكنة يستظل بظلها المسلمون قرونًا طويلة، حتى إذا تمكن اليهود من الإجهاز على طليحها الفاني ظل الإسلام يشمخ برأسه عزيزًا في سائر بلاد الإسلام يمثله المؤمنون المستمسكون، والعلماء العاملون، والدعاة المخلصون، والمجاهدون المستبسلون، تصديقًا لموعود رسول الله صلى الله عليه وسلم ببقاء الطائفة الظافرة المنصورة.

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ▪ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ▪ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ▪ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ▪ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ▪ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ▪ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ▪ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ▪ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ▪ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ▪ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ▪ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ)[139].

عوامل ووسائل دفع الغربة:

لقد أنشأ الرسول صلى الله عليه وسلم بفضل الله، وعونه، ومدده دولة من العدم، دانت لها الأقطار والأمم، راضية مختارة، وأقام دعوة خالدة تالدة، جعل الله العزة والتمكين لمن اتبعها وحالفها، والذل والصغار على من أباها وخالفها، وأورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض، ومغاربها، وجعل من رعاة الشاة والغنم، رعاة الشعوب والأمم.

وحين نبحث عن عوامل تكوّن هذا البناء الشامخ الماثل عبر العصور، المقاوم لعوامل الهدم والخراب، نجد أن السبب الرئيسي في ذلك هو عون الله وتوفيقه لهذه الدعوة وحملتها، لما علمه منهم من صدق السرائر، وصلاح الظواهر، والتجرد من المطامع الدنيوية، فكانوا -هم- جنده الغالبين، وعباده المنصورين، وإن الأسباب المادية والعوامل البشرية وحدها لا يمكن أن تفسر ما حدث أبدًا، فما حدث كان أكبر من الأسباب المادية، وأكبر من العوامل البشرية.

ولكن هذه الأسباب والعوامل تصلح أن تكون "جزءًا" -فحسب- من توفيق الله لهذه الدعوة، ورحمته لها؛ بل رحمته البشرية بها.

ولو نظرنا إلى الأسباب المادية -مجردة عن المدد الإلهي- لوجدنا أنه كان من الممكن أن تنجح خطة من خطط قريش في اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم، ومن الممكن أن يقتل الرسول صلى الله عليه وسلم في بدر أو غيرها كما قتل نبيون قبله، ومن الممكن أن تنكشف خطة الهجرة للمشركين، ومن الممكن أن تتداعى القبائل بقيادة قريش -الموتورة يوم بدر- لترمي المسلمين عن قوس واحدة وتناجزهم.

ومع أن هذا كله كان ممكنًا؛ بل حصل ما يشبه بعضه[140]، فإن الله كان يحوط دعوته، ويحميها، ويكلأ رسوله، وقد سبقت كلمته بأن سينصر هذا النبي وهذا الدين، ويقيم لهم الدولة، ويقيم بهم الملة، ويمحق بهم الكافرين.

ويوم يتخلى الله عن فرد أو أمة تتحول الأسباب المادية لنصرهم أسبابًا إلى الهزيمة، وكما قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى
فأول ما يجني عليه اجتهاده

فلابـد عند دراسة أو تحليل أي موقف مـن المواقف العَقَديـة الدينيـة، مـن استحضـار البعـد الإيمــاني الــذي يســتجلب توفيــق اللــه وعــونه ونصره.

وبقدر ما يتحقق به المؤمنـون مـن الصـفات الإيمانيـة، وبقـدر قـوتهم فـي تنفيـذ التوجيهـات الربانية، يكون عون الله لهم.

أمــا حيــن نلتفــت إلــى العوامــل والأســباب الظاهرة، فإننـا نجـد أولاً أن كـل دعـوة أو حركـة تعتمد على أسس ثلاثة:

الأول: المبـدأ أو المعتقـد الواضـح المتميـز الذي تنادي به وتقوم من أجله أيًّا كان هذا المبدأ، ومنه تتحدد أهدافها وغاياتها، وعلى ضـوئه تكـون نظمها ومناهجها.

الثاني: الأنصار والأتباع الملتفون حــول هــذا المبدأ، الملتزمون به.

الثالث: القيادة التي تسير بهؤلاء الأتباع إلــى تحقيق الأهداف.

فإذا توفرت هذه الأسس الثلاثة، من وجود معتقد واضح صحيح، تتحدد على ضوئه المقاصد والغايات، ووجود أنصار صادقين مؤمنين مستعدين للتضحية في سبيل نجاح معتقدهم، ووجود قيادة حكيمة قوية قادرة على السيطرة على المواقف والتوجيه السليم، وتجنب العثرات ما أمكن.

إذا وجدت هذه الأسس، وتحققت لدعوة ما، احتاجت في نجاحها إلى أمرين:

الأول: تهيؤ الظروف المكانية.

الثاني: تهيؤ الظروف الزمانية.

وقد تجد دعوات قوية ذات عقيدة واضحة سليمة، نجحت في جمع الناس حولها، وكان لها قيادات تملك قدرًا من الحكمة والقوة، ولكنها لم تراع - حق المراعاة- الظروف المكانية أو الزمانية التي تتحرك فيها، فلم تنجح في الوصول إلى مبتغاها؛ لأنها تحركت في مكان غير ملائم، أو زمان غير ملائم.

وتجد دعوات أخرى لا تملك المعتقد الواضح الذي تجمع الناس عليه، ولا تملك من الأتباع المؤمنين كما تملك تلك، ولكنها استطاعت أن تستفيد من عنصري الزمان والمكان، وأن تراقب الفرص المواتية وتتعامل معها بذكاء فكانت أكثر نجاحًا، وأقل تضحية، وما أكثر هذا في الدعوات المنابذة للإسلام كالشيوعية، والبعثية، والنصيرية، والعلمانية.

وحين نطبق هذه المفهومات العامة على الدعوة الإسلامية الأولى، نجد أنها استكملت الأسس الثلاثة أتم استكمال، ثم انتفعت بعنصري الزمان والمكان أتم انتفاع، فكان نجاحها فوق كل نجاح:

1- **فأما المعتقد** الذي التف حوله المؤمنون، فكان هو الإسلام، وهو الدين الإلهي المهيمن على الأديان كلها، والذي لا يقبل الله في الآخرة سواه، وقد جاء كتابه القرآن جامعًا للأصول والقواعد العامة في جميع شؤون الحياة، مفصلاً للجوانب المهمة في الاعتقاد، والأحكام، والسلوك، محددًا للمصادر التشريعية الأخرى التي يحيل عليها.

يقول الله تعالى: **(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)**[141].

ويقول صلى الله عليه وسلم: "**ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل ينثني شبعانًا على أريكته، يقول: عليكم بالقرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه**"[142].

هذا من حيث حقيقة هذا الدين وهذه الدعوة، أما من حيث وضوحها في عقول المؤمنين بها، وقلوبهم، فكانت في الغاية العليا - كذلك.

وذلك راجع إلى ربانية هذا الدين، حيث جاء ملائمًا للفطرة، منسجمًا معها، فبمجرد أن يصغى الإنسان لداعي الإيمان، برغبة صادقة، يشرق الإيمان في قلبه، وينهار الركام المطبق عليه.

إضافة إلى طبيعة المؤمنين، حيث لـم تفسِـد عقولهم الفلسفاتُ البشرية، ولم تلوث نفوسَـهم المظاهرُ الماديـة، وكـان انحرافهـم -قبـل- قريبًـا سـهل الانـدفاع، وكـانوا قريـبين مـن مصـدر هـذا الدين، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهـم، والـوحي يتنــزل عليـه بكـرة وعشـيًّا ولـذلك كـانوا أعلـم النـاس بـالله وأطـوعهم لـه وأبعدهم عن التكلف .

أما وضوح الدعوة لسائر النـاس، فـإن النـبي صلى الله عليه وسلم جهر بدعوته في وقت مبكر من الرسالة لتحقيق هذا المطلـب، وأعلنهـا علـى الملأ بلا تلجلج ولا غموض[143]، ومنـذ أعلـن صـلى الله عليه وسلم دعوته صارت دعـوة الإسـلام واضحة جلية ليس فيها مجال للالتباس.

ولقد حاول المشركون - منذ البدايـة - إخفـاء حقيقة هذه الدعوة، أو تشـويهها، والتشـكيك فـي سلامة أهدافها فلم يفلحوا.

(وَانْطَلَــقَ الْمَلأ مِنْهُــمْ أَنِ امْشُــوا وَاصْـبِرُوا عَلَـى آلِهَتِكُـمْ إِنَّ هَـذَا لَشَـيْءٌ يُرَادُ)[144]**.**

قال الإمام الطبري: "أي إن هذا القول الذي يقول محمد، ويـدعونا إليـه، مـن قـول: لا إلـه إلا الله، شيء يريده منا محمد، يطلب به الاسـتعلاء علينا، وأن نكون له فيه أتباعًا، ولسنا مجيبيه إلـى ذلك"[145].

كما أطلقوا على النبي صلى الله عليه وسلم أوصـاف الشـعر، والسـحر، والكهانـة، وغيرهـا. فكـان الإعلان والصـدع قضـاء علـى هـذه الشائعات، وتبيانًا للحقيقـة الـتي لابـد أن يعلمهـا الناس أجمعون.

وحين انطلق المسـلمون مـن المدينـة للجهـاد في سبيل الله، كانت الـدعوة إلـى الإسـلام تسـبق كل هجوم عسكري على قبيلة، أو بلـدة -خاصـة إن كانت لم تبلغها الدعوة- كما في حديث بريدة رضي اللـه عنـه أن النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم قـال: **"وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلــى ثلاث خصــال (أو خلال)، فــأيتهن مــا أجــابوك فاقبــل منهــم وكــف عنهــم، ثــم ادعهم إلى الإسـلام، فـإن أجـابوك فاقبـل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلـى التحـول من دارهم إلـى دار المهـاجرين، وأخـبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهـم مـا للمهـاجرين، وعليهم ما على المهـاجرين، فـإن أبـوا أن يتحولــوا منهــا، فــأخبرهم أنهــم يكونــون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم اللــه الذي يجري على المؤمنين، ولا يكـون لهـم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهـدوا مــع المســلمين، فــإن هــم أبــوا فســَلْهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهــم، فــإن هــم أبــوا فاســتعن بــالله وقاتلهم"**[146].

وما بعثه صلى الله عليه وسلم أصحابه وكتبه إلى القبائل والملوك في الجزيرة وغيرها[147]، إلا جزءًا من الجهد الذي يهدف إلى إيضاح حقيقة الدعوة وأهدافها للناس؛ ليحيى من حيَ عن بينة، فيؤمن بهذه الدعوة ويناصرها عن علم وبصيرة، ويهلك من هلك عن بينة، فيحارب الدعوة ويقاومها عن علم أيضًا.

2- أما الأنصار الملتفون حول هذا المعتقد فقد جمعوا، إلى الخصائص الفطرية، الخصائص الإيمانية.

فقد كانت الأمة التي ينتسبون إليها خير أمم الأرض -على ما أصابها من الانحراف، والفساد- وقد تحصنت بصحرائها المترامية عن زيف الحضارات المادية، وتخليطات الفلسفات البشرية، فكانت أقرب إلى الفطرة، والسلامة، من غيرها.

وقد توارثت العديد من الصفات الخيّرة، كالشجاعة، والكرم، والنجدة، والصدق، والصراحة، والغيرة.

وكـان إسـراع الرعيـل الأول، فمـن بعـدهم -ممن لهم شأن وخطر في نشر الدعوة، والقيـام بها- دليلاً على استيلائهم على الـذروة العليـا مـن هذه الأخلاق الكريمـة، وتخلصـهم مـن كـثير مـن قبائح البيئة العربية.

وآية ذلك ما تحملـوه فـي سـبيل دينهـم مـن الضر والجهد، فمـا ثنـى ذلـك مـن عزائمهـم، ولا أضعف يقينهم، وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا[148].

ثـم مـا ظهـر علـى سـلوكهم وأعمـالهم فـي الحـرب والسـلم، والعسـر واليسـر، مـن التـأثر العميـق بهـذا الـدين، والاسـتجابة التامـة للـه والرسول، حتى ضربوا في ذلك الأمثلة الفـذة، التي يشهد التاريخ أنه لم يشهد لها مثيلاً.

وقد اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم على علم، ثم قيض لهم من أسباب التربية والبناء والتكوين، ما لم يتيسر لغيرهم.

فكانت صـحبتهم لسـيد المربيـن صـلى اللـه عليه وسلم وبنـاؤهم علـى عينـه، مزيـة وفضـيلة زكت نفوسهم، وجردتها من إرادة غير الله، حتى صارت أعمالهم مضاعفة الأجور أضعافًا لا يدركها غيرهم.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنـه قـال: قال النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم: "**لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحـدكم أنفـق مثـل أحـد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**"[149].

هذا إلى ما كان من شدة العوز والحاجة إلـى النفقـة فـي زمنهـم، لشـدة الحـال، وضـيق ذات اليد، ولذلك قال تعالى: **(لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْـدُ وَقَـاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ الله الْحُسْنَى وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)**[150].

وكان من صنيع الله لهم -خاصة في الفترة المكية- أن وفقهم لاحتمال ألوان الأذية الحسية والمعنوية، التي كانت قريش توجهها إليهم، وكانت مما لا طوق للإنسان باحتماله، لولا تثبيت الله، وأمرهم -مع ذلك- بكف اليد، وعدم الانتصاف من المعتدين، ووجههم إلى العبادة لما فيها من المعونة على الصبر، فتحرروا بذلك من الغضب للنفس، والانتصار لها، وتجردوا من إرادة الدنيا -بجميع صورها- وتعلقوا بالآخرة، ونعيمها، وخيرها، وسلموا من ردات الفعل الضارة لدعوتهم، المفسدة لنفوسهم، وهم الذين ورثوا النخوة العربية، والثأر والشجاعة والحمية.

وإنك لتجد كثيرًا من الناس قد تثيرهم الحماسة الطائشة إلى الانتقام والانتصار، وتزين لهم نفوسهم أنهم ما غضبوا إلا لله، وما تأثروا إلا لدينه، فإذا جد الجد، وعزم الأمر، انفلت عزائمهم، ووهنت قواهم.

قال تعالى: **(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ الله أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالأخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)**[151].

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عبد الرحمن بن عوف، وأصحابًا له أتوا النبي بمكة، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا في عز، ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، فقال: **إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا**، فلما حوّلنا الله إلى المدينة، أمرنا بالقتال، فكفوا، فأنزل الله عز وجل: **(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ)**[152].

3- أما القيادة التي حملت هذه الدعوة، وجمعت الناس عليها، فيقف في مقدمتها النبي صلى الله عليه وسلم ثم كبار أتباعه، ومقدموهم، كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وغيرهم.

والرسول صلى الله عليه وسلم هو خاتم الرسل، وأفضلهم والمخصوص بالمزايا والفضائل التي ما حازها غيره، من آدم فمن دونه، وقد ألفت في شمائله، وأخلاقه، وخصائصه، مؤلفات مستقلة، فضلاً عن الأبواب المتعلقة بذلك في سائر كتب السنة[153].

ومن الجوانب البارزة في شخصيته صلى الله عليه وسلم ما يلي:

(أ) كمال خُلُقه، واتصافه باللين، والسماحة، والصبر، والإحسان، والتجاوز، والجود، وحسن المعشر؛ ولذلك كان من رآه أحبه، فإذا عاشره ازداد له تعظيمًا وإجلالاً، مع الإلفة، والاطمئنان إليه، ولا تكاد تبدر منه بادرة غضب، أو عنف، إلا أن تنتهك حرمات الله، فيغضب لله، لا لنفسه.

إلى ما حباه الله من القوة، والهيبة، والوقار.

ومن كان كذلك كان حريًا أن يؤلف حوله القلوب، ويروض نافر النفوس، ويستل راسخ السخائم، والأحقاد، وهكذا كان صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: (**فَبِمَا رَحْمَة مِـنَ اللـه لِنْـتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**)[154].

(ب) كمال حكمته صلى الله عليه وسلم فقد آتاه الله من وفور العقل، وبعد النظر ما لم يـؤت أحدًا من العالمين.

وقـد زكـى هـذه المنحـة بكـثرة المشـاورة لأصـحابه، والاسـتئناس بقـولهم، والرجـوع إلـى رأيهـم إذا رآه صـوابًا امتثـالاً لقـوله تعـالى: (**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُـمْ وَشَـاوِرْهُمْ فِي الأمْرِ**)[155].

ومـا عـزم صـلى اللـه عليـه وسـلم علـى أصحابه في أمر إلا كان الخير فيـه، والضـرر فـي خلافه.

(جـ) وضـوح شخصـيته وضـوحًا تامًـا للعـدو والصديق، والقريب والبعيد قبـل البعثـة وبعـدها، في حالة الحرب والسلم.

فقد اعترف أعداؤه الألداء في حالة عداوتهم له باستقامته، ومباعدته لأخلاق الجاهلية، وبراءته من كل ما يدنس حاشيته، كما اعـترفوا بصـدقه، وأمـانته، وعفـافه، وعزوفـه عـن مطـامع الـدنيا، والشهرة، والجاه، والرياسـة، وعلمـوا ذلـك منـه علم اليقين.

فلما احتاجوا في حربهم لـه أن يغمـزوه بمـا يشينه لم يجدوا شيئًا من ذلك البتة[156]، فحـاولوا أن يجعلـوا مـن فضـائله معـايب، ومـن محاسـنه مساوئ، فصاروا كما قيل:

إذا محاسني اللاتـي أدلُّ بهـا.. كـانت ذنوبًـا.. فقل لي: كيف أعتذر؟

كما حاولوا أن يلصقوا فيه مـا هـو منـه بـراء، فلم يفلحوا في هذه، كما لم يفلحوا في تلك[157].

ذلك لأن شخصـيته صـلى اللـه عليـه وسـلم كانت غير قابلة لتلك الدعاوى والافـتراءات، فكـان كل من عرفه يدرك بلا عنـاء كـذبها، ومـن سـمعها فسـبقت إلـى عقلـه، فسـرعان مـا تـزول بمجـرد مقابلته للنبي صلى الله عليـه وسـلم أو محـادثته لـه.

ولذلك يقول عبد الله بن سلام رضي الله عنه: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبتُ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب[158].

إن أعماله وتصرفاته صلى الله عليه وسلم لم تتلبس بشيء من الغموض، والتورية، والتأويل، الذي يلجأ إليه أهل السياسة؛ بل كانت واضحة، سهلة، بعيدة عن الالتواء، والتحايل.

(د) ومع هذه الخصائص والصفات حباه الله اليقين الراسخ الذي لا يمكن أن يتطرق إليه ضعف أو تردد، وإيمان المرء، ويقينه بدعوته، هو أول خطوات الطريق إلى إقناع الآخرين بها، ودعوتهم إليها.

ولقد يوجد أشخاص آمنوا بالباطل، وتشبعت به نفوسهم، فاستطاعوا دعوة غيرهم إليه، وحققوا شيئًا مما يريدون، فما بالك بمن يؤمن بالحق؟.

إنــه يجمــع إلــى قــوة الحــق الذاتيــة، قــوته الشخصية في عرض الحق والدعوة إليه.

أما عن استفادة الدعوة مـن عنصـري الزمان والمكان:

فثمة جانب قدري إلهـي لـم يكـن مـن عمـل الإنسان واختياره، ولكنـه مـن صـنع اللـه العليـم الحكيم لدعوته ودينه.

فقـد أرسـل رسـوله علـى حيـن فـترة مـن الرسل، وفي زمان طمسـت فيـه معـالم الحـق، وحرفت فيه الديانات السماوية، وسيطرت علـى الناس النــزعات الماديـة، والشـهوات البهيميـة، فكانوا أحوج ما يكونون إلى دين ربـاني، ينقـذهم مـن حمـأة الرذيلـة والانحطـاط، ويحيـي فيهـم الكرامة الإنسانية.

وكـان العـرب -أيضًـا- يعـانون مـن فسـاد الأحـوال الدينيـة، والخلقيـة، والاجتماعيـة، وقـد سئموا من الحروب الطاحنة، وسفك الدماء، ولم يكـن لهـم ديـن صـحيح يؤمنـون بـه، ولا شـريعة يحتكمون إليها[159]، وقد ترنحت أواصـر النسـب، والقربى، والرحم، أمام المعارك التي كانت تقـع بيــن ذوي القربــى، وبيــن الأخــوين كمــا يقــول القطامي[160]:

وأحيانًا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

وقد وصف تلك الحال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حين قال للنجاشي: كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف[161].

وكانت مكة -بالذات- تعاني من شدة الشره، والحرص على المال، والقسوة على الضعفاء، بسبب سيطرة الروح التجارية عليها، وقصة أبي جهل مع الأراشي معروفة [162]، وغيرها مثلها كثير.

وكانت المدينة تعاني من النزاع المسلح بين الأوس والخزرج، الذي يهدد بالانفجار في كل لحظة، كما تعاني من خطر دخول اليهود في صراع مسلح معهم، كما كانوا يهددون بذلك[163].

وفي ظل هذه الظروف الزمانية القدرية كانت نشأة الدعوة وكان انتقالها، واستقرارها.

وكان في اختيار الله تعالى للجزيرة، ثم لمكة، والمدينة -خاصة- مكانًا للدعوة. حكمة عظيمة.

فكانت الجزيرة بيئة صحراوية جافة، تتفشى فيها البداوة، ولم تكن مجتمعاتها مجتمعات حضرية، ولم تنشأ فيها حكومات مركزية، وكانت القبيلة هي كل شيء في نظر العربي.

ولذلك صارت حياتهم قاسية، جلبت المشقة لأصحابها، ولمن يقيم على مقربة منهم من الحضر، فهم في نزاع دائم فيما بينهم، ثم هم في نزاع مع الحواضر المجاورة.

وهذا الجانب من البيئة المكانية أفاد الدعوة بعدة أمور:

(أ) من حيث طبيعة الأتباع المؤمنين بالدعوة، والذين ولدوا وتربوا في هذه الجزيرة، فكانوا بعيدين عن فساد الحضارات، قريبين من الفطرة، سريعي القبول، واضحي الشخصية.

(ب) ومن حيث طبيعة الأعداء المناوئين للدعوة، حيث كانوا صعبي الانقياد، شديدي التنافس على الرياسة، لا تكاد تجتمع أهواؤهم على شيء، ولا تلتقي على قائد، نظرًا لطبيعة الغلظة والأنفة فيهم.

وهـذه الطبيعـة - وإن كـانت موجـودة فـي العربي غالبًا - إلا أن الـدين يهـذبها، حيـث يكـون الـوازع لهـم مـن أنفسـهم، فيـذهب خلـق الكـبر والمنافسة، ويسهل انقيادهم واجتماعهم [164].

ولـذلك لـم تكـد تجتمـع القبائـل وتتفـق علـى حرب النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم، بـل اسـتفاد المسلمون من هذا التناقض القبلـي فـي مواقـف كثيرة -خاصة في الفترة المكية-[165].

(جـ) وعدم وجود سلطة مركزية كان لـه أثـره فـي إضـعاف مقاومـة الـدعوة -خاصـة مـع وجـود التنافس القبلي-؛ ولذلك تصاب كثير مـن الـدعوات التي تقـوم فـي ظـل حكـم مركـزي بالفشـل، لأن الحكـم المركـزي يأخـذ علىعـاتقه مقاومـة الـدعوة وجمع الناس على حربها، وتسخير إمكانياته للقضـاء عليهـا، وحـال الـدعوة الإسـلامية تحـت رقابتهـا وتسلطها كالذي يقول: أين المفر؟ البحر أمـامكم، والعدو وراءكم!.

(د) كما كان للوضع القبلي أهمية فـي حركـة الدعوة حيث استطاع الرسول صلى اللـه عليـه وسـلم أن يسـتفيد مـن إيجابيـاته، ويتخلـص مـن سلبياته.

فقد جمعت الدعوة أتباعًا من شتّى العشائر والقبائل - منذ بدايتها، وهذا يضمن عدم التصاق الدعوة بقبيلة واحدة، بحيث يدعو التشاحن القبلي إلى نبذ الدعوة؛ لأنها دين تلك القبيلة.

ثم استفادت الدعوة من تلك العصبية في حماية قائدها - خاصة في بداية أمرها - وقد تفانى بنو هاشم، وبنو المطلب، في المدافعة عن النبي صلى الله عليه وسلم بصورة مذهلة [166]، يحكي طرفًا منها أبو طالب حيث يقول:

كذبتم - وبيتِ الله- نبزى محمدًا
ولما نطاعن دونه
ونناضل
ونسلمه حتى نصرّع دونه
ونذهل عن أبنائنا
والحلائل[167]!

ثم كان قائد الدعوة صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل ويطلب منها الإيواء والنصرة[168]، وهذا دليل واضح على أهمية القبيلة -في بيئة الجزيرة العربية - في نصر الدعوة، وحماية قائدها وأتباعها.

(هـ) والجزيـرة العربيـة هـي المكـان الـذي يمكن أن يخلص للدعوة، ليظل منطلقًا لها، بعيدًا عن المؤامرات التي تهدده من الداخل.

ومع وجود اليهود والنصارى فيها، حيث كان اليهود يقطنون فـي خيـبر، وتيمـاء وفَـدَك، ووادي القــرى[169]، والمدينــة، وفــي بعــض بلاد اليمــن، والنصارى يقطنون في نجران[170].

فإنهم كانوا -بالنسبة لسعة الجزيـرة- قليليـن، ومعظمهم طارئون عليها، وهم في مناطق محددة يصــعب عليهــم التحــرك فــي غيرهــا، ويســهل حصارهم فيها، وإجلاؤهم منها.

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يوصي بإخراج المشركين كافة من الجزيرة، وهو في مرض موته: كما في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: يوم الخميس، وما يوم الخميس؟ اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه، فقال: **ائتوني أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا**، فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقال: ما شأنه؟ أهَجَر؟ استفهموه، فذهبوا يردون عليه، فقال: "**دعوني، فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه وأوصاهم بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم**، وسكت عن الثالثة، أو قال فنسيتها"[(171)].

بـــــــــــــــــــــــــل

صـــــــــــــــــــــــــر

َح صلى الله عليه وسلم بإخراج اليهود والنصارى خاصة، فعن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "**لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أدع إلا مسلمًا**"[(172)].

وبالنسبة للبيئة المكانية الخاصة في مكة، فقد كانت مكة مركزًا دينيًـا عنـد العـرب، حيـث يوجـد البيت والمشاعر، وآثار الحنيفية وذكرياتها، وكانت العـرب تعظـم الـبيت وتحجـه، وهـذا جعـل لمكـة ولقريش خصائص فريـدة، قـال الإمـام الخطـابي رحمه الله: "وبلغني عن بع ض العلم اء أن ه سـئل عن قريش، كيف صـارت أفضـل العـرب قاطبـة، وإنما هي قبيلة من مضر؟ فقـال: لأن دار قريـش لم تـزل موسـم النـاس، ومنسـك الحـاج، وكـانت العـرب تقصـدها فـي كـل عـام لحجهـم، وتَردهـا لقضاء نسكهم، فهم لا يزالـون يتـأملون أحـوالهم، ويراعونها، فيختارون منه ا أحس ن م ا يش اهدونه، ويتكلمــون بأفصــح مــا يســمعون مــن كلامهــم، ويتخلقون بأحسن ما يرونه من شمائلهم، فصاروا أفضل العرب من قِبَل حُسـن الاختيـار، الـذي هـو ثمرة العقل، فلما ابتعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم منهم، تمت لهم الفضيلة، وكملـت لهـم بـه السيادة"[173].

ولذلك صارت مكة -أيضًا- مركزًا تجاريًا، وحوله تقوم الأسواق المشهورة للعرب، وهذا جعلها مكانًا مناسبًا لانطلاق الدعوة الإسلامية المجددة للملة الحنيفية، وجعل من ارتياد العرب لها للحج، أو التجارة أو غيرهما فرصة لمحادثتهم، ونشر الدعوة بينهم، وهذه كانت أقوى وسيلة إعلامية ممكنة في ذلك العصر.

وقد استفاد النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الميزة، فكان يعرض نفسه على الناس في المواسم، والأسواق[174]، وكانت قريش تلقى عنتًا، وعناء شديدًا، في حجب حقيقة النبوة عن العرب.

أما المدينة، فبالإضافة إلى قربها من مكة، ووجود الروابط القوية بينهما، فقد كانت توجد فيها قبيلتا الأوس والخزرج، وهما قبيلتان كبيرتان تتمتعان بالقوة، كما كانت المدينة أقدر من غيرها على استيعاب جموع المهاجرين إليها، وإيجاد المجالات المناسبة لعملهم، فضلاً عن وقوعها في طريق القوافل التجارية المتجهة نحو الشمال من مكة مما يسهل حصار مكة منها، وتضييق الخناق عليها إذا دعى الأمر[175].

وهذه الأسباب: زمانية ومكانية لا تعدو أن تكون تلمسًا لبعض الحكم الإلهية في توقيت الدعوة، وتحديد مكانها.

ولكن ثمة جانب آخر مهم في مراعاة عنصري الزمان والمكان، وهو الجانب المتعلق باجتهاد البشر وجهدهم في تحديد الزمان المناسب، والمكان المناسب، وهو في السيرة باب واسع أكتفي بالإشارة إلى بعض أمثلته.

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر من أسلم من القبائل الأخرى أن يستخفي بإسلامه ويقول: "**فإذا سمعت أني قد ظهرت فأتني**" كما حدث لعمرو ابن عبسة حيث قال له النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: إنى متبعك: "**إنك لا تستطيع يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني**"[176]، ومثله أبو ذر رضي الله عنه حيث قال صلى الله عليه وسلم: "**ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري**"[177].

وذلــك لأن تــوقيت إعلانهــم الإســلام فــي الساعة التي أسلموا فيها غير ملائم، وإنما ينبغي أن يذهبوا إلى قومهم، وينشـروا الإسـلام بينهـم، حتى تحين الفرصـة المناسـبة لجمـع الأتبـاع فـي موطن واحد.

وحين أسلم أول نفر من الأنصـار، كـانوا مـن الخزرج، ولم يكن الإسلام قد فشـا فـي المدينـة، فلــو حــدثت الهجــرة لمــا كــان للحييــن -الأوس والخزرج- عليـه جماعـة، ولربمـا واجـه مصـاعب جمة في مهاجره [178].

ولـذلك تربـص الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم حتى انتشر الإسلام في الأوس والخــزرج، واطمأن إلى ملاءمة الأحوال، فهاجر.

وحين بايع صلى الله عليـه وسـلم أصـحاب العقبة الثانية، حدث ما يرويه عبد الله بـن كعـب: عن كعب بن مالك في قصة البيعة قال:

فقال العباس بن عبادة بـن نضـلة -أخـو بنـي سـالم-: يارسـول اللـه، والـذي بعثـك بـالحق إن شئت لنميلن غدًا على أهل منى بأسيافنا!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إنـا لــم نــؤمر بــذلك، ارفضّــوا**[179] **إلــى رحالكم**"[180].

فالجهـاد قبـل تـأمين قاعـدة يفيـء إليهـا الإسلام، ويهاجر إليها المسلمون لا يكون؛ ولذلك وصف الله المؤمنين بقوله: **(إِنَّ الَّـذِينَ آمَنُـوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَـدُوا بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ فِـي سَـبِيلِ اللـه وَالَّـذِينَ آوَوا وَنَصَـرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)**[181].

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله وَالَّـذِينَ آوَوا وَنَصَـرُوا أُولَئِـكَ هُـمُ الْمُؤْمِنُـونَ حَقًّا لَهُـمْ مَغْفِـرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)[182].

(وَالَّــذِينَ آمَنُــوا مِــنْ بَعْــدُ وَهَــاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ)[183].

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَـدُوا فِـي سَبِيلِ اللـه بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ أَعْظَـمُ دَرَجَةً عِنْـدَ اللـه وَأُولَئِـكَ هُـمُ الْفَـائِزُونَ)[184].

فالجهاد الذي يقصد من ورائـه توسـيع رقعـة الإسلام، ونشر الـدعوة والـدين، لا يكـون إلا بعـد قيام الدولة المسلمة.

أما الـدفاع عـن النفـس، والعـرض، والمـال، والوطن، فهو مشروع في حال الاستطاعة، فــي كل وقت.

وحين هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم تدرج في موضوع الجهاد، فبدأ بالمناوشات التي يقصد من ورائها ردع القبائل المجاورة عن الهجوم على المدينة، ثم اعترض عير قريش، فحصلت معركة بدر على غير ميعاد، ثم كانت أحد، والأحزاب التي غُزي فيها المسلمون وتعرضوا للبلاء الشديد، وخلال ذلك كان وادع اليهود ليتفرغ لغيرهم، ويأمن شرهم -إلى حين-.

ثم بدأ بعد الأحزاب في مرحلة الهجوم على الأعداء، حيث هاجم بني قريظة، ثم غزا بني المصطلق، ثم خرج إلى الحديبية، ثم خيبر، ثم مؤتة، ثم الفتح الأعظم وهكذا...[185].

وهذا ما لم يفعله صلى الله عليه وسلم في بداية العهد المدني.

أما بالنسبة لعنصر المكان فأول ما يلحظ: اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم للحبشة مكانًا لهجرة أصحابه، حيث يوجد فيها ملك عادل، لا يظلم عنده أحد، وقد أثبتت الأحداث دقة هذا الاختيار، حيث عاش المسلمون في خير دار، عند خير جار، وأمنوا على دينهم ولم يلقوا منه ظلمًا[186].

بل أكثر من ذلك أن النجاشي -نفسه- أسلم، وتابع النبي صلى الله عليه وسلم[187].

وحين نلحظ اتجاه السـرايا والبعـوث الأولـى نجدها كانت موجهة إلى قريـش -بالـذات- غالبًـا، وكانت مهماتها سريعة، تتمثل في الهجــوم علـى بعض ركبان المشركين، وبث الرعب في نفـوس المتربصين.

إن معرفة المسلم الداعي للأرض التي يتحرك عليها، والظروف التي يعيش فيها، أمر في غاية الأهميـة، فالمناسـب فـي زمـان، أو مكـان، قـد لا يناسب في مكان، أو زمان آخرين.

والمرء في حال الاستضعاف، غيره في حـال القوة، وهو في حالة التشتت والتفرق، غيره فـي حال الدولة وجمع الكلمة، ومن الخطـأ أن تكـون الدعوة إلى الله انفعالات وعواطف، وردود فعـل يستجيب لهـا الإنسـان دون وعـي، ثـم يعجـب ألا ينصره الله!

وسائل دفع الغربة:

لقد سلك الرسول صلى اللـه عليـه وسـلم ثم أصـحابه معـه فـي دفـع الغربـة عـن الإسـلام وسائل شـتى؛ بـل لـم يـتركوا وسـيلة مشـروعة ممكنــة إلا حاولوهــا، ولكــن يمكــن تحديــد أهــم الوسائل فيما يلي:

1- تكوين الجماعة المسلمة:

فقـد جـاء الإسـلام إلـى بيئـة تعتـبر الانتمـاء للقبيلة هـو كـل شـيء، وتتفـانى فـي حفـظ هـذا الانتماء والقيام بحقوقه، والتضحية في سبيله.

فلمــا بــدأ الرســول دعــوته، والتــف حــوله المؤمنون، بدأوا يدركون إدراكًا عميقًا بُعد الفجوة القائمة بينهم وبين قومهم المشركين -من جهـة-، ويشعرون بشـدة القـرب والتشـاكل بينهـم وبيـن سائر المؤمنين بالدعوة -من جهة أخرى-، وبدأوا يشعرون بعظيم مكانة الرسول صلى الله عليــه وسلم باعتباره المبلـغ عـن اللـه، والـداعي الـذي أنقذهم الله على يديه[188].

فتـآلفت قلـوب المـؤمنين، وكـانت متباعـدة، وتباعدت قلوبهم مـع أقـوامهم المشـركين، وحـل الانتماء للدين، وللجماعة التي تحمله، وتدعو إليـه، محل الروح من الجسـد، فمـا بقـي ينافسـه فـي القلــب انتمــاء لشــيء، لا لقبيلــة، ولا لبلــد، ولا لغيرهما، وصـار الانتمـاء القبلـي، أو الفئـوي -فـي حــدوده الطَبَعيــة- ميــدانًا للســباق فــي الخيــر، والتنافس في البلاء والجهاد والتضحية[189].

وقد تجمع هؤلاء المؤمنون من شتى القبائــل حول القيادة المحمدية، وخلعوا من أعنـاقهم نيـر الطاعة لشيخ القبيلة، أو زعيمها.

وهـذا الـترابط الشـديد بيـن المـؤمنين: فـي قلوبهم، وفي أعمالهم، وفي أشخاصـهم، جعلهـم فئة واحدة متراصة، وحقق لهم أهدافًا عديدة:

(أ) فهو ذو أثر كبير في دفع الشعور بالغربـة الفردية، وتحويله إلى شـعور جمـاعي منتـج مثمـر، وفرق كـبير بيـن فـرد يحـس بغربتـه عمـن حـوله، فيتجافى عن واقعه، ويضرب على نفسه سورًا من العزلة، وبين فئة مترابطـة متكاتفـة تشـعر بغربتهـا وتميزها، وتعلم أن الله فضلها واختارها لتـؤدي دورًا عظيمًا في التاريـخ، فيـدفعها ذلـك إلـى مزيـد مـن التلاحم والبذل والعطاء، ويغرس فيها شعور العــزة والاستعلاء.

وهذا هو الشعور الذي كان النـبي صـلى اللـه عليه وسلم يبعثه في أصحابه في مواقف عديدة.

فعـن عائشـة رضـي اللـه عنهـا قـالت: أعتـم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة بالعشـاء، وذلك قبل أن يفشو الإسلام، فلم يخرج حتى قـال عمر: نام النسـاء والصـبيان، فخـرج، فقـال لأهـل المسجد: "**ما ينتظرها أحد مـن أهـل الأرض غيركــم**"، وفــي روايــة: ولا يصــلى يومئــذ إلا بالمدينة، وكانوا يصلون العتمة فيما بيـن أن يغيـب الشفق، إلى ثلث الليل الأول[190].

فهو صلى الله عليه وسلم يحيي في نفوس أصحابه تفردهم بهذه الفضيلة، وتميزهم بها عن غيرهم؛ ليزيد من رغبتهم في التنافس على الخير وإحساسهم بفضل الله عليهم.

(ب) وهذا الترابط والانتماء من أسباب تثبيت المؤمن على دينه، وتحريضه على الصبر عليه، وعلى ما يلقاه في سبيله، فالإنسان مهما يكن مؤمنًا تصيبه الوحشة من قلة الموافقين، ويشعر بالاعتزاز بكثرتهم وقوتهم، وهذه فطرة جبلّية مركوزة، لا يكاد ينفك عنها الإنسان، وتزايد عدد المؤمنين- مع ما يولده من العزة- هو خطوة نحو تحقيق كيان مستقل لهم، وبناء دولة تحميهم؛ ولذلك قال عمر: ولله لو بلغنا ثلاث مئة لأخرجناكم منها- يعني مكة[191].

(جـ) وهو من أسباب التضحية والبذل والجهاد عند الصحابة، فإن شعور الإنسان بانتمائه إلى كيان واقعي يمثل العقيدة التي يؤمن بها، والمنهج الذي يسير عليه، يجعله يصب جميع طاقاته وقدراته في سبيل دعم هذا الكيان وتقويته وحمايته.

وإذا كان ارتباط الإنسان بهذا الكيان -أصلاً- إنما هو بدافع الإيمان، فليس يخل بنيّة المرء، وإخلاصه، أن تزيد رغبته في الطاعة وحرصه عليها، بمجاورة أهل الخير وقربهم، وإنما شرع الاجتماع على الخير لهذا المعنى وما شابهه؛ ولذلك كان بعض المقبلين على الإسلام يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم: من معك على هذا الأمر؟[192].

(د) ومن خلال هذا التجمع تمكّن الرسول صلى الله عليه وسلم من تنسيق جهود الداعين، بحيث تتآلف وتتكامل، ولا تتناقض، وتمكن كذلك من توجيهها الوجهة السليمة التي تخدم ولا تهدم؛ ولذلك أبى الرسول صلى الله عليه وسلم على عباس بن عبادة بن نضلة التسرع في قتال المشركين[193].

(هـ) وهو الصورة العملية التي يمكن أن تهيئ للداخلين في الدين جوًّا يعينهم على الترقي في درجات الإيمان، والتخلص من انحرافات البيئة المحيطة بهم، خاصة قبل قيام الدولة- كما في الفترة المكية.

2- بناء الدولة:

والدولة الإسلامية تقوم لثلاثة أهداف:

(أ) لرفع الفتنة ودفعها عن المـؤمنين الضـعفاء المضـطهدين، بحيـث يوجـد قـوة تحميهـم وتمنعهم.

(ب) لتحقيق الدينونة الكاملة لله، بتحكيم شرعه المنـزل، وإخضاع العالم كله لحكم الإسـلام، مع عدم الإكراه على الدين.

(جـ) لنشـر الـدعوة الإسـلامية، وبيـان حقيقـة الإسلام للناس، باعتباره دينًا من اللـه -ربهـم أجمعيـن- يجـب أن يبلـغ إليهـم، ليحيـى مـن حـــــــــــــــــــــــــــــــي عن بينه، ويهلك من هلك عن بينة.

ومـن الواضـح أن النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم كان يبحث خلال عرض نفسه على القبائل عن قبيلة تؤويه وتحميه حتى يبلـغ كلام اللـه، مـع أنه كان له أتبـاع كـثير، وهذا يشـير إلى أهميـة الاستفادة من إمكانيات القبيلة في نشر الـدعوة، كالأرض التي تنطلق منها، والعصـبية الـتي تقـوم عليها.

ولقد كان ظفـر الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم بقبيلتي الأوس والخزرج خطوة جبارة نحو الهجرة، فقيام الدولة.

ولما هاجر صلى الله عليه وسلم واستقر هـو وأصـحابه بالمدينـة، بـدأت تتكامـل أجهـزة الدولـة ومؤسسـاتها، وصـار الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم هو الحـاكم فيهـا، وبـدأت تتلاشـى القيـادات الجاهلية، كزعامة عبد الله بن أبي بن سلول.

وقـد قـامت هـذه الدولـة علـى أرض الأوس والخزرج، وانضم إليها المهاجرون من كل مكان؛ بل صارت الهجرة إليها واجبة[194].

وقـــد قـــامت هـــذه الدولـــة بـــدفع الأذى والاضـــطهاد عـــن المـــؤمنين، حيـــث أوى إليهـــا المؤمنون من كل مكان، وعـاد إليهـا المغـتربون في الحبشة، فانتهى عهد الاستضعاف - بالنسـبة لجملة المؤمنين- وإن وجد حالات فرديـة خاصـة تعرض فيها أفراد مؤمنون للاضطهاد.

كما حققت جانبًا عظيمًا من جـوانب العبـادة، وأقامت ركنًا من أركانها، وهو تحكيم شريعة اللـه في سـائر أمـور الحيـاة: الاقتصـادية والاجتماعيـة والسياسـية وغيرهـا، فحكمـت الـوحي السـماوي في علاقتها بغيرها من الأمـم، وفـي علاقـة بعـض أفرادها ببعض، وفـي بنـاء اقتصـادها، وفـي سـائر أمورها.

وهذا جانب تعبدي عظيم، ناتج عن إفـراد اللـه تعالى بالألوهية والربوبية.

وأدت هذه الدولة مهمتها في نشر الدعوة الإسلامية في الأرض، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يبعث أصحابه إلى القبائل لدعوتهم إلى الإسلام، وتعليمهم الأحكام، ويستقبل الأفراد، والجماعات المبعوثة من تلك القبائل فيؤويهم ويعلمهم، أو يعهد إلى بعض أصحابه بتفقيههم.

وكان يرسل الرسل أو يبعث الكتب إلى أنحاء الجزيرة، وإلى الملوك والأقيال والجبابرة يدعوهم إلى الله تعالى، ويبلغهم ببعثته صلى الله عليه وسلم[195].

3- القيام بالجهاد:

والجهاد جزء من مهمة الدولة، إذ كان المؤمنون مأمورين بكف اليد، وإقام الصلاة، وهم في مكة[196].

فلما كانت الهجرة والدولة، أذن الله لهم في الجهاد، ثم أمرهم بقتال من قاتل، والكف عمن اعتزل فلم يقاتل، ثم أمرهم بقتال المشركين كافة، حتى يكون الدين كله لله[197].

والجهاد أصل من أصول الدين، وليس مجـرد دفاع عن النفس أمام هجمـات الأعـداء؛ بـل هـو دفاع عن النفـس، وقيـام بـواجب نشـر الـدعوة، وإسـقاط الـدول الكـافرة النـي تعـوق انتشـار الإسلام، وإخضاعها لحكـم الإسـلام، عـن طريـق الدخول في الدين، أو دفع الجزية للمسلمين.

ولئـن كـانت البيئـة العربيـة الـتي قـام فيهـا الإسلام أول أمره بيئة تـؤمن بـالقوة، وتسـتجيب لها أكثر من استجابتها للحجة، كما قيل:

دعا المصطفى دهـرًا بمكة لم يُجَبْ
وقـــد لان منـــه جـــانب
وخطاب

فلما دعا والسيف بالكف مصلت له
أســـلموا، واستســـلموا
وأنابوا

فإن جميع البيئات لا تخضع للحق المجـرد مـن القوة، الأعزل من السلطان، وكل أمر يـراد حمـل الكافة عليه، في أي عصر، وفي أي بيئة، فلابـد لـه من قوة.

وليست القوة التي تكره الناس على الـدخول في الدين؛ بـل القـوة الـتي تظهـر للنـاس حقيقـة الـدين، وتزيـل الضـغوط الـتي تحـول بينهـم وبيـن الإيمان به، وتهيئ الجو لتقبل الحق، ثم تخلي بيــن الناس وبين أنفسهم: يؤمنون، أو لا يؤمنون[198].

ولهذا بدأ الرسول صـلى اللـه عليـه وسـلم عقــب اســتقراره بالمدينــة يرســل الســرايا المســلحة تجــوس خلال الصــحراء المجــاورة، وتخترق طريق القوافل المارة بين مكة والشـام، وتستطلع أحوال القبائل الضاربة هنا وهناك[199].

وكانت المدينة مهددة بالهجوم عليها من قبل البدو الضاربين حول المدينة، أو من قبل قريــش المهددة في اقتصادها؛ بل فـي مكانتهـا وكيانهـا، فكان المسلمون على استعداد دائم للـدفاع عـن أنفسهم.

حـتى إذا كـانت الأحـزاب، وانصـرفت جمـوع الكفـار عـاجزة عـن تحقيـق أي انتصـار، انتقـل المسلمون إلى الجهاد الهجومي،وتجاوزوا مرحلة الدفاع.

عن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:حين أجلى الأحزاب عنه: "**الآن نغزوهم، ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**"[200]!

هكذا كان، فلم تتلق المدينة بعد هزيمة الأحزاب أي هجوم، وصارت السرايا والبعوث، والغزوات تنطلق منها إلى كل حدب، حتى فتحت مكة.

وهذه الوسائل- وغيرها- تعتمد اعتمادًا كبيرًا على الفرد المؤمن الجاد المضحي في سبيل الله، فهو الذي يحمل الدعوة، ويتفانى في سبيلها ويقاتل من أجلها، وليس كل المؤمنين بالإسلام من المستعدين لهذه التضحية، ولا يلزم أن يكونوا كذلك؛ بل إن القاعدة القليلة المستجمعة للصفات المطلوبة- حسب طاقتها- هي التي تحقق على يديها- بإذن الله- نصر الله لهذا الدين، واندفعت عنه الغربة، حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله، وهي التي يمكن أن يتحقق على يديها هذا الأمر في كل زمان ومكان.

* * *

خاتمة

وفي ختام هذه الجولة الممتعة مع سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وسنته نخلص إلى النتائج التالية:

1- الحديث الوارد في الغربة صحيح؛ بل متواتر عن أكثر من عشرين طريق.

2- معرفة أسباب غربة الإسلام الأولى.

3- معرفة المظاهر والصور التي تمثلت فيها هذه الغربة من الإيذاء والحصار والقلة وغيرها.

4- وتبين كيف استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه أن يجاهدوا بهذا الدين (جهاد الدعوة بالقرآن، ثم جهاد السيف والسنان) حتى كتب الله لهم النصر والتمكين، وفتح لهم البلاد، فدانت الجزيرة للإسلام قبل موت النبي عليه الصلاة والسلام، وأكمل الله الدين، وأتم النعمة على المؤمنين، وبذلك زالت غربة الإسلام في بلاد العرب، وصار له وجوده القائم المتميز.

5- كما تم التعرف على الأسباب والعوامل والوسائل التي أفاد منها المسلمون في إعزاز الدين ودفع الغربة عنه وعن أهله.

وهي دروس للمسلم في كل زمان ومكان، خاصة المسلم المتبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم، السائر على هديه، السالك منهج أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين والسلف المهتدين.

وسيمر في رسالة (صفات الغرباء وواجباتهم في هذا العصر) حديث عن واجب أهل السنة والجماعة في نشر الدعوة وحماية الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هوامش الفصل الثالث

[1] سورة الأحزاب: آية 21.

[2] سورة المدثر: الآيتان 1، 2.

[3] سورة المائدة: آية 3.

[4] سبق تخريجه في الفصل الأول، أسباب الغربة الأولى.

[5] رواه البخاري في: 1 - كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: (1/3).

وفي: 60- كتاب الأنبياء، 23- باب: وقال رجل مؤمن من آل فرعون.. (4/124).

وفي: 65- كتاب التفسير، 96 - سورة اقرأ، 1 - باب: (6/87). 2- قوله خلق الإنسان من علق (6/89). 3 - قوله اقرأ وربك الأكرم: (6/89). 4- باب الذي علم بالقلم: (6/89).

وفي: 65- كتاب التفسير، 96- سورة اقرأ، 3- قوله اقرأ وربك الأكرم (تعليقًا): (6/89).

وفي: 91-التعبير، 1- باب التعبير وأول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم: (8/67).

ومسلم في: 1-كتاب الإيمان، 73- باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم (252، 253، 254)، (1/139-143).

وروى الترمذي طرفًا منه في: 50- كتاب المناقب، 6- باب: رقم (3632)، (5/596).

ورواه أبو عوانة في بيان صفة مبعث النبي صلى الله عليه وسلم: (1/110-112).

والإمام أحمد في مسنده: (6/223،232،233).

والطبري في التاريخ: الخبر عما كان من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ...، (2/298).

وابن سعد في الطبقات: ذكر نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم: (1/194) مختصرًا.

وله شاهد عن ابن عباس رواه أحمد في المسند: (1/312).

[6] سبق ذكر نماذج من ذلك في قصة ربيعة بن عباد الديلي، وطارق بن عبدالله المحاربي، وجابر بن عبد الله، وشيخ من بني مالك بن كنانة رأى النبي صلى الله عليه وسلم ... وذلك في الفصل الأول، المتعلق بأسباب الغربة.

[7] في الفصل الثاني، المتعلق بمظاهر الغربة وصورها.

[8] الحديث سبق تخريجه.

[9] انظر: في الهجرتين وتفاصيلهما، والقدمات الثلاث للمهاجرين: زاد المعاد لابن القيم: (3/23-29).

[10] ورسالة الأخ الشيخ سليمان السعود في: أحاديث الهجرة (ماجستير مطبوع على الآلة) ص (8-56) وغيرهما.

(10) انظر: مصنف عبد الرزاق: (5/384)، طبقات ابن سعد: (1/204).

[11] هجر هي الأحساء، انظر في تحديدها وأصل تسميتها: معجم البلدان: (5/393).

[12] سبقت أكثر من مرة.

[13] انظر الروايات في رسولي قريش في: حديث أم سلمة السابق، حديث ابن مسعود في: المسند: (1/461)، ودلائل النبوة للبيهقي في الهجرة الأولى إلى الحبشة: (2/298)، حديث أبي موسى في المستدرك في كتاب التفسير.. سورة النساء: (2/309) وغيرها.

[14] انظر: سيرة ابن هشام: (1/375).

[15] سبق تخريجه في الفصل الأول.

[16] العقبة: المشهور أنها العقبة التي بويع عندها النبي صلى الله عليه وسلم وهي التي ترمى منها الجمرة، بين منى ومكة، ولكن أنكر ذلك الزرقاني، لبعدها عن الطائف. انظر: عمدة القاري (15/142)، شرح المواهب اللدنّية للزُرقاني (1/297).

[17] قرن الثعالب: هو ميقات أهل نجد، ويقال له: قرن المنازل، وهو على مسيرة يوم وليلة من مكة.. انظر: الفتح: (6/315).

[18] الحديث رواه البخاري في: 59- كتاب بدء الخلق، 7- باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء: آمين..(4/81).

وفي: 97- كتاب التوحيد، 9- باب: وكان الله سميعًا بصيرًا: (8/168) مختصرًا.

ومسلم في: 32- كتاب الجهاد والسير، 39- باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين، رقم (111): (3/1420).

والنسائي في سننه الكبرى: 44- كتاب النعوت، 31- السميع (ل: 101 أ).

وأبو عوانة في: كتاب الجهاد، بيان الشدة التي أصابت النبي صلى الله عليه وسلم يوم العقبة: (4/334،336،337).

واسم ابن عبد كُلال: كنانة، والذي في المغازي أن الذي كلم النبي صلى الله عليه وسلم هو عبد يالِيل نفسه، وعند أهل النسب أن عبد كُلال أخوه لا أبوه، وأنه عبد يالِيل بن عمرو بن عمير بن عوف. وكان من أكابر أهل الطائف من ثقيف. انظر: الفتح (6/315).

وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن خالد بن أبي جبل العدواني رضي الله عنه أنه أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم يبتغي عندهم النصر، قال: فسمعته يقرأ: والسماء والطارق حتى ختمها، قال: فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك، ثم قرأتها في الإسلام. قال: فدعتني ثقيف، فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم،

فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا لو كنا نعلم مـا يقـول حقًّا لتبعناه: (4/335).

ونسبه ابن حجر في الإصابة لأحمد ولابن أبي شيبة وابن خزيمة فـي صحيحه والطبراني وابن شاهين من طريق عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي عن عبد الرحمن بن خالد بن أبي جبل العدواني عن أبيه.

وعبد الله بن عبد الرحمن: صدوق يخطئ ويهم. انظـر: التقريـب: (1/429). والتهذيب: (5/298).

أما عبد الرحمن بن خالد فقال الحسيني: مجهول، وقـال ابـن حجـر: صحَّح ابن خزيمة حديثه، ومقتضاه أن يكون عنده من الثقات. تعجيل المنفعـة: ص (248). وانظـر: الإصـابة، ترجمـة رقـم (1428)- (3/52).

[19] السيرة النبوية: لابن كثير (2/153).

[20] رواه أبو داود في: 34 - كتاب السنة، 22 - باب في القرآن، رقم (4734)، (5/103).

والترمذي في: 46- كتاب فضائل القرآن، 24- باب: رقـم (2925)، (5/184). وقال: هـذا حـديث غريـب صـحيح، وفـي نسـخة التحفـة: حسن صحيح (2/175).

والنسائي في سننه الكبرى: 44- كتـاب النعـوت، 46- كلمـات اللـه سبحانه وتعالى: (ل 101 أ).

وابن ماجه: المقدمة، 13- باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (201) (1/73).

والدارمي في: 23- ومن كتاب فضائل القرآن، 5- باب القـرآن كلام الله، رقم (3355)، (2/317).

والإمام أحمد في مسنده: (3/390).

كلهم من طريق إسرائيل، حدثنا عثمان بن المغيرة، عن سالم، عن جابر.

وإسرائيل هو ابن يونس بن أبي إسحاق السبيعي: ثقة. انظر: التهذيب (1/261)، التقريب: (1/64).

وعثمان هو ابن أبي زرعة الثقفي: ثقة. انظر: التهذيب: (7/155) والتقريب: (2/14).

وسالم بن أبي الجعد: ثقة، ومضى.

فالحديث -بهذا الاسناد- صحيح.

[21] المسند: (3/390)، قال: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا إسرائيل فذكره.

وأسود بن عامر: ثقة. انظر: التهذيب: (1/340)، التقريب (1/76). وقد سبق الحديث من طريق أخرى عن جابر - بنحوه-، وسيأتي قريبًا بسياق طويل في خبر البيعة.

[22] سبق أول الحديث المتعلق بخروج أبي بكر من مكة ولقي ابن الدَّغِنة له، وإجارته، وهذا القدر من الرواية موجود في: البخاري: (4/254)، (3/58-59).

والمصنف لعبد الرزاق: (5/385-386)، وهو مختصر في البخاري أيضًا: (1/122).

[23] رواه البخاري في: 61 - كتاب المناقب، 11 – باب قصة زمزم: (4/158-159).

وفي: 63- فضائل الأنصار، 33- باب إسلام أبي ذر (4/241).

وفي: 97ـ كتاب التوحيد، 23- باب قول الله تعالى: تعرج الملائكة والروح إليه.. (8/177)، معلقًا مختصرًا.

ورواه مسلم في: 44- كتاب فضائل الصحابة، 28- باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه رقم (133): (4/1923).

وأبو نعيم في الحلية، في ترجمة أبي ذر، رقمها (26): (1/158).

والطبراني في الكبير، رقم (12959): (12/226).

ووردت القصة عن أبي ذر نفسه رضي الله عنه في:

مسلم في: 44- كتاب فضائل الصحابة، 28- باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه رقم (132): (4/1919).

وأحمد في المسند: (5/174).

وابن أبي شيبة في المصنف: كتاب المغازي، (2413) - إسلام أبي ذر، رقم (17447)، (14/315).

وأبو نعيم في الدلائل، ذكر إسلام أبي ذر: ص (207).

وفي الحلية، في ترجمة أبي ذر، رقمها (26)، (1/157).

[24] رواه البخاري في: 63- كتاب فضائل الأنصار، 35- باب إسلام عمر: (4/242).

وفي: 62- فضائل الصحابة، 6- باب مناقب عمر: (4/199).

والإمام أحمد في فضائل الصحابة، إسلام عمر بن الخطاب، رقم (368): (1/277).

والطبراني في المعجم الكبير، برقم (8821، 8822، 8823)، (9/182).

وابن سعد في الطبقات، في ترجمة عمر: (3/270).

والحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، عمر بن الخطاب رضي الله عنه، (3/84) وقال: هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

[25] قائل هذا: عمر رضي الله عنه.

[26] رواه البخاري في: 63 - كتاب فضائل الأنصار، 35 - باب إسلام عمر (4/242). بلفظين هذا أحدهما.

[27] من الظاهر أن هذه المقاتلة تعني المدافعة باليد ونحوها، وليس بالسيف.

[28] رواه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، عمر بن الخطاب رضي الله عنه (3/85)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

ورواه ابن إسحاق في السير والمغازي بسياق نحو سياق الحاكم، في إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ص 184ـ 185) قال: حدثني نافع عن ابن عمر..

وإسناده (أعني إسناد ابن إسحاق) حسن لتصريحه بالتحديث، ونافع: ثقة ومضى، وإن كان في إسناد الحاكم قد عنعن، وأدخل عند الحاكم بينه وبين نافع واسطة وهو عبيد الله بن عبد الله بن عمر وهو ثقة إمام وأحد الفقهاء السبعة. انظر: التهذيب: (7/38)، التقريب (1/537).

وقال ابن كثير عن إسناد ابن إسحاق: وهذا إسناد جيد قوي. السيرة: (2/39).

وقال الحاكم عن إسناده: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

[29] سبق تخريجها قبل قليل.

[30] انظر: سيرة ابن هشام: (1/311-312).

[31] رواه الحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة، ذكر الأرقم بن أبي الأرقم (3/504). وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

وإسناد الحديث محتمل للتحسين: فيه أسد بن موسى وثقه النسائي وابن قانع والبزار وابن حبان وغيرهم، وقال ابن حزم: منكر الحديث وقال ابن حجر: صدوق يغرب، وقال الذهبي: ما علمت به بأسًا

تهذيب التهذيب: (1/260)، التقريب: (1/63)، الميزان: (1/207).

[32]وفيه عطاف بن خالد المخزومي قال أحمد: صحيح الحديث، وقال: ليس به بأس، وقال ابن معين: ليس به بأس ثقة صالح الحديث، وتكلم فيه مالك، وقال ابن حجر: صدوق يهم. التهذيب (7/221)، والتقريب: (2/24).

وفيه عثمان بن عبد الله بن الأرقم، ترجم له البخاري في التاريخ ولم يذكر جرحًا ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في الثقات، وخلط ابن حجر في التعجيل بينه وبين عثمان بن الأرقم بن أبي الأرقم، وصنيع البخاري وابن حبان وغيرهما يقتضي أنهما اثنان, والله تعالى أعلم.

انظر: التاريخ الكبير: (21496)، رقم الترجمة (2201)، (6/232)، رقم الترجمة (2259).

والثقات لابن حبان: (7/198)، (5/157)، وتعجيل المنفعة: ص(282) ترجمة رقم (721)، وذكر بعضهم أن له ترجمة في الميزان ولم أقف عليها.

(32) انظر: رأي ابن كثير في: السيرة له: (2/33).

[33] تقدمت في الفصل الثاني، المتعلق بمظاهر الغربة الأولى.

[34] وانظر: رواية الزهري التي تفيد أن دخول بني هاشم وبني عبد المطلب كان باختيارهم لحماية الرسول صلى الله عليه وسلم: سيرة ابن كثير: (2/43).

[35]وقريب منه رأي الإمام الخطابي، كما في كتاب العزلة له ص (8).

(35) سبق تخريج حديث أبي ذر قبل صفحات، أما حديث عمرو فسبق في الفصل الثاني.

[36] رواه البخاري في: 63- مناقب الأنصار، 1- باب مناقب الأنصار (4/2 21).

27 - باب القسامة في الجاهلية: (4/237).

46 - باب مقدم النبي صلى اللـه عليـه وسـلم وأصـحابه المدينـة (4/265).

37 انظر: فتح الباري: (7/220)، والسيرة النبوية لابن كثير: (2/176).

38 سورة البقرة:رقم الآية 89.

39 تفسير الطبري: (1/410)، وانظر: الدر المنثور: (1/215).

40 انظر: السيرة النبوية لابن هشام: (2/70-73)، والسيرة النبوية لابن كثير: (2/177-178)، وفي المصادر تحديد أسماء هؤلاء الستة.

41 انظر: السيرة لابن هشام: (2/70)، وبعضهم يسميها العقبة الأولى، وعلى هذا تكون العقبات ثلاثًـا. انظـر: الـدرر فـي اختصـار المغـازي والسير، لابن عبد البر: ص (38)، وعيون الأثر لابـن سـيد النـاس: (1/155).

42 أي أصبنا وارتكبنا.

43 رواه البخاري: 2- كتاب الإيمان، 11- باب: (1/10).

وفي: 63- مناقب الأنصار، 43- باب وفود الأنصار إلـى النـبي صـلى الله عليه وسلم بمكة وبيعة العقبة: (4/252).

وفي: 64- كتاب المغازي، 12- باب: (5/14).

وفي: 65 - كتاب التفسير، 6 - سورة الممتحنة، 3 - باب إذا جاءك المؤمنات يبايعنك: (6/60).

وفي: 86- كتاب الحدود، 8- باب الحدود كفارة: (8/15).

وفي: 93- كتاب الأحكام، 49- باب بيعة النساء: (8/125).

وفـي: 97- كتـاب التوحيـد، 31- بـاب فـي المشـيئة والإرادة: (8/191).

وفي: 87- كتاب الديات، 2- بـاب قـول اللـه تعـالى: ومـن أحياهـا (8/35).

ومسلم في: 29- كتـاب الحـدود، 10- بـاب الحـدود كفـارات لأهلهـا رقم (41، 42، 43، 44)، (3/1333)، واللفظ له.

والترمذي في: 15- كتاب الحدود، 12- باب ما جاء أن الحدود كفارة لأهلها، رقم (1439)، (4/45).

وقال: حديث عبادة بن الصامت حديث حسن صحيح.

والنسـائي فـي: 39- كتـاب البيعـة، 9- بـاب البيعـة علـى الجهـاد (7/141-142)، 17- البيعة على فـراق المشـرك: (7/148)، 38- ثواب من وفى بما بايع عليه: (7/161).

وفيـه: 47- كتـاب الإيمـان وشـرائعه، 14- البيعـة علـى الإسـلام (8/108).

وفي سننه الكبرى: 40- كتاب الرجم، 31- الترغيب في ستر العورة (ل:95ب).

وروى طرفًا منه: ابن ماجه في: 20- كتاب الحدود، 33- بـاب الحـد كفارة، رقم (2603)، (2/868).

والدارمي في: 17- ومـن كتـاب السـير، 17- بـاب فـي بيعـة النـبي صلى الله عليه وسلم، رقم (2457)، (2/139).

وأحمد في المسند: (5/313،314،320،321،323).

وابن إسحاق، كما في سيرة ابن هشام، في العقبة الأولى، (2/75).

وابن سعد في ذكر العقبة الأولى: (1/220).

والطبري في التاريخ: (2/356).

والبيهقي في الدلائل، باب ذكر العقبة الأولى (2/436،437).

ونسبه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد وابـن مردويـه.. وابن المنذر. تفسير سورة الممتحنة: (8/139).

[44] انظر: فتح الباري: (7/222)، والسيرة النبوية لابن كـثير (2/179)، حيث قال: "..يعني على وفق ما نزلت عليه بيعـة النسـاء بعـد ذلـك، عام الحديبية، وكان هذا مما نزل على وفـق مـا بـايع عليـه أصـحابه، ليلة العقبة، وليس هذا عجيبًا، فـإن القـرآن نـزل بموافقـة عمـر بـن الخطاب في غير ما موطن.. وإن كانت هذه البيعة وقعت عـن وحـي غير متلو فهو أظهر".

[45] سيرة ابن هشـام: (2/75)، وتاريـخ الطـبري: (2/356)، قـال ابـن إسحاق،: حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبـد اللـه اليزنـي، عن عبد الرحمن بن عسيلة الصنابحي، عن عبادة.

ويزيد: ثقة، انظر: التهذيب (11/318)، والتقريب (2/363).

ومرثد: ثقة، انظر: التهذيب (10/82)، والتقريب (2/236).

وعبد الرحمن بن عسيلة: ثقة، انظر: التهذيب (6/229)، والتقريـب (1/491). فالإسناد حسن.

[46] انظر: السيرة لابن هشام: (2/76)، والسيرة لابن كـثير: (2/180)، وأضـاف بعضـهم عبـد اللـه بـن أم مكتـوم، انظـر الـدرر: ص (39)، وعيون الأثر: (1/158).

ويشهد لمقدمهما جميعًا قول البراء: أول من قدم علينا مصـعب بـن عمير، وابن أم مكتوم فجعلا يقرآننا القرآن.

رواه البخاري في: 63- مناقب الأنصار، 46- باب مقدم النبي صـلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة (4/263).

وفـي: 65- كتـاب التفسـير، 87- سـورة سـبح اسـم ربـك الأعلـى (6/82).

وعزاه المزي للنسائي. التحفة:(2/55)

[47] انظر: ابن هشام (2/77-80)، وعيون الأثر: (1/158-161).

[48] رواه البخاري في: 92- كتاب الفتن، 2- باب قـوله صـلى اللـه عليـه وسلم: سترون بعدي أمورًا تنكرونها: (8/88)، وهذا لفظه.

وفـي: 93- كتـاب الأحكـام، 43- بـاب كيـف يبـايع الإمـام النـاس: (8/122).

ومسلم في: 33- كتاب الإجارة، 8- باب وجوب طاعة الأمر في غير معصية..، رقم (41،42)، (3/1470).

والنسـائي: فـي 39- كتـاب البيعـة، 1- بـاب البيعـة علـى السـمع والطاعة: (7/137، 138).

2- باب البيعة على ألا ننازع الأمر أهله: (7/138).

3- باب البيعة على القول بالحق: (7/139).

4- باب البيعة على القول بالعدل: (7/139).

[49] 5- باب البيعة على الأثرة: (7/139).

وفي الكبرى: 50- كتاب السير، 79- البيعة: (ل 116أ).

وابن ماجه في: 24- كتاب الجهاد، 41- باب البيعة، رقم (2866)- (2/957).

والإمام أحمد في المسند: (5/316، 318، 319، 325).

وأبو عوانة في مسنده، كتـاب الأمـراء، بـاب حظـر منازعـة الإمـام (4/454، 455، 456)، ثم باب الخبر الدال على إباحة منازعة الإمام إذا ظهر منه الكفر: (4/456).

وابن إسحاق كما فـي سـيرة ابـن هشـام، فـي: شـروط البيعـة فـي العقبة الأخيرة: (2/97).

وخرج طرقًا منه: الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، في مناقب عبادة ابن الصامت: (3/356).

و الزيادة: (وأن نقول..) عند جمع المخرجين.

في رواية المسند: (5/325) وغيرها.

[50] سيرة ابن هشام: شروط البيعة في العقبة الأخيرة: (2/97)، وقد رواه ابن إسحاق من طريق عبادة بن الوليد بن عبادة، عن أبيه عن جده ومن طريقه رواه الإمام أحمد: (5/316).

وعبادة: ثقة، انظر: التهذيب (5/114)، والتقريب (1/396).

والوليد: ثقة أيضًا، انظر: التهذيب (11/137)، التقريب (2/333).

وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، فالإسناد حسن.

[51] مَجَنَّة: بفتح الميم والجيم وتشديد النون - اسم سوق للعرب في الجاهلية بمر الظهران بأسفل مكة على قدر بريد منها. انظر: معجم البلدان: (5/58).

[52] عُكاظ: بضم العين وتخفيف الكاف، وهو اسم سوق لهم أيضًا وهو نخل بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال. انظر: معجم البلدان: (4/142).

[53] العض: إمساك الشيء بالأسنان، ويقصد به هنا: الحرب والشدة.

انظر: القاموس المحيط: (2/349)، الفائق في غريب الحديث للزمخشري: (2/443-444).

[54] رواه الإمام أحمد في المسند: (3/322)، وفيه: تخافون من أنفسكم جُبَينة، وكذلك: (3/339-340). وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح. المجمع: (6/46).

والبزار -كما في كشف الأستار- كتاب الهجرة والمغازي، باب البيعة على الحرب رقم (1756) (2/307).

وابن حبان كما في الموارد 27- كتاب المغازي، 2- باب البيعة على الحرب، رقم (1686) ص (408).

و الحاكم في المستدرك: كتاب التاريخ: (2/624).

وقال: هذا حديث صحيح الإسناد جامع لبيعة العقبة ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

والبيهقي في الدلائل، باب ذكر العقبة الثانية (2/442).

وفي السنن، كتاب السير، باب الإذن بالهجرة (9/9).

من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر.

وسبق الكلام على هذه الطريق:

وقال ابن كثير: وهذا إسناد جيد، على شرط مسلم، ولم يخرجوه. السيرة النبوية: (2/196).

وله شاهد عند ابن سعد في ترجمة أسعد بن زرارة: (3/609)، عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، وهو مرسل ضعيف، فيه علي بن زيد بن جُدعان، ضعفه أحمد وابن معين وأبو حاتم وغيره، وقال يعقوب بن شيبة: ثقة صالح الحديث وإلى الليـن ما هو، وقال الترمذي: صدوق.

وقال الذهبي: أحد الحفاظ وليس بالثبت، وقال ابن حجر: "ضعيف".

الجرح والتعديل: (9/186)، السير: (5/206)، التهذيب: (7/322)، التقريب: (2/37).

ولجميع فقرات الحديث شواهد أخرى سبق بعضها، في الفصل الأول المتعلق بأسباب الغربة، وفي الفصل الثاني المتعلق بمظاهر الغربة.

55 قال ابن هشام: ويقال: الهدم الهدم، يعني الحرمة، أي: ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم. السيرة: (2/85).

56 رواه ابن إسحاق، كما في السيرة لابن هشام: أمر العقبة الثانية (2/81-85)، قال: حدثني معبد بن كعب بن مالك، أن أخاه عبد الله ابن كعب -وكان من أعلم الأنصار- حدثه، أن أباه كعبًا حدثه وكان

كعب ممن شهد العقبة، وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بها.

ومن طريقه الإمام أحمد في المسند: (3/460).

وفي فضائل الصحابة: فضائل العباس: (2/923) مختصرًا.

والطبري في التاريخ: (2/357-363).

وابن حبان في: مناقب الصحابة، ذكر البراء بن معرور، برقم (6972)، (9/74).

والبيهقي في الدلائل: باب ذكر العقبة الثانية: (2/442).

ومعبد بن كعب: وثقه العجلي، وذكره ابن حبان في الثقات، وروى عنه جمع، وأخرج له الشيخان.

[57]انظر: ثقات العجلي: ص (433)، الثقات لابن حبان: (5/432)، والجرح والتعديل: (8/279)، والتهذيب: (10/224).

وعبد الله بن كعب: ثقة. انظر: التهذيب (5/369)، التقريب: (1/442). فهذا الإسناد حسن.

وقد قال ابن حجر في ترجمة أم منيع (واسمها أسماء بنت عمرو)، وهي أم معاذ بن جبل، قال: "ذكر ابن إسحاق بسند صحيح، عن كعب بن مالك، أنها كانت مع من شهد العقبة، مع السبعين، هي ونسيبة بنت كعب". الإصابة: (12/116).

وقال الهيثمي: "رواه أحمد، والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح، غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع".. المجمع (6/45).

(57) السيرة لابن هشام: (2/97).

[58] انظر: الدر المنثور: (6/57).

[59] سورة الحج: رقم الآيتين 39-40.

[60] سورة الأنفال: الآية 72.

[61] سورة الأنفال: الآية 74.

[62] سورة الأنفال: الآية 75.

[63] انظر: سيرة ابن هشام: (2/123،129)، والسيرة النبوية لابن كثير (2/227،290).

[64] انظر: حديث عائشة في الهجرة، السابق في الفصل الأول: أسباب الغربة الأولى، حيث ذُكر طرفُه المتعلق بخروج أبي بكر للهجرة إلى الحبشة، وجوار ابن الدغنة.

[65] الحَزْورة: بفتح الحاء المهملة وسكون الزاي المعجمة وفتح الواو، قال الدارقطني: كذا صوابه، والمحدثون يفتحون الزاي ويشددون الواو وهو تصحيف، سوق بمكة، وقد دخلت في المسجد -لما زيد فيه- قاله ياقوت، وقال بعض المعاصرين: وهي ما يعرف اليوم باسم القشاشية، مرتفع يقابل المسعى من مطلع الشمس، والله أعلم.

انظر: معجم البلدان: (2/255)، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية لعاتق البلادي: ص(98).

[66] الحديث رواه الترمذي في: 50 - كتاب المناقب، 69- باب في فضل مكة، رقم (3925)، (5/722)، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

ورواه النسائي في سننه الكبرى، 8 - كتاب المناسك، 306 - فضل مكة (ل 55أ).

وابن ماجه في: 25 - كتاب المناسك، 103 - باب فضل مكة، رقم (3108) (2/1037).

والدارمي في: 17 - كتاب السير، 67 - باب إخراج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة، رقم (2513)، (2/156).

وأحمد في المسند: (4/305).

والحافظ عبد بن حميد كما في المنتخب من مسنده، برقم (490)، ص (439) وفي سند المطبوع عدة أخطاء.

وهو من حديث صحيح من رواية الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ابن عوف عن عبد الله بن عدي.

وأشار إليه الترمذي من رواية محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة وقال: وحديث الزهري عن أبي سلمة عن عبد الله بن عدي بن حمراء عندي أصح، (5/723)، وذلك لأن محمد بن عمرو صدوق له أوهام كما قال ابن حجر في التقريب: (2/196)، فالزهري أوثق منه وأحفظ.

ولكن يعكر على هذا أن الزهري نفسه رواه عن أبي سلمة عن أبي هريرة كما في المسند: (4/305)، والسنن الكبرى (ل 55أ)، كما رواه نفسه عن أبي سلمة عن بعضهم في المسند أيضًا: (4/305).

قال ابن حجر بعد ذكر الاختلاف في الحديث على الزهري: "...والمحفوظ الأول". الإصابة (6/163).

يعني: رواية الزهري عن أبي سلمة عن عبد الله بن عدي بن الحمراء.

وقال المباركفوري: "... الظاهر أن كلا الحديثين صحيحان، وليس أحدهما أصح من الآخر"... تحفة الأحوذي: (10/427).

وكون الحديثين بمنزلة واحدة من الصحابة فيه نظر؛ لأن الحديث الأول وهو حديث الزهري عن أبي سلمة يترجح بعدة أمور:

1- تعدد رواته عن الزهري من الثقات الأثبات في مقابل راوٍ واحد له عنه عن أبي سلمة عن أبي هريرة وهو معمر بن راشد وهو ثقة ثبت كذلك.

2- تصريح الزهري بالتحديث في الرواية الأولى، أما في الرواية الثانية فقد عنعن.

3- أن الرواية الثانية فيها اختلاف، فمرة قال معمر: عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة، ومرة أرسله، ومرة عن الزهري عن أبـي سلمة عن بعضهم.

أما حديث معمر عن أبي سلمة عن أبي هريـرة، فقـد ورد مـن طريـق أخرى عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريـرة، وهذا يرجح صحة الحديث عن كلا الصحابيين: أبي هريرة، وعبـد اللـه بن عدي ابن الحمراء. والله أعلم.

وللحديث شاهد عن ابن عباس بمثله.

رواه الترمذي في الموضع السابق وقال: هـذا حـديث حسـن غريـب من هذا الوجه، وفي التحفـة: حسـن صـحيح غريـب.. حـديث رقـم (5539)، (4/421).

وله شاهد مرسل من حديث أبي سلمة ويحيى بن عبـد الرحمـن بـن حاطب، ضمن قصة فتح مكة الطويلة.

ورواه ابن أبي شيبة في كتاب المغازي، (2435) حـديث فتـح مكـة، رقم (18746)، (14/476).

67 الإذخر والجليل نبتـان مـن نبـات مكـة، ومجنـة سـبق التعريـف بهـا، وشامة وطفيـل جبلان بقـرب مكـة، وقـال الخطـابي: كنـت أحسـب أنهما جبلان حتى ثبت عندي أنهما عينان. انظر الفتح: (7/263).

68 بطحان في ضبطه أوجه: بضم الباء وسكون الطـاء عنـد المحـدثين، وبفتح الباء وكسر الطاء عند كثير من أهل اللغ ة، وضـبط بفتـح البـاء وسكون الطاء، هو أحد أودية المدينة الثلاثة: العقيق وبطحان وقناة.

انظر: معجم البلدان: (2/446).

69 الآجن: هو المتغير، انظر: النهاية (1/26).

70 رواه البخاري في:30- كتـاب فضـائل المدينـة، 12- بـاب: (2/224) بهذا اللفظ.

وفي: 63- مناقب الأنصار، 46 - باب مقدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة: (4/263).

وفي: 75 - كتاب المرضى، 8 - باب عيادة النساء الرجال (7/5).

22 - باب من دعا برفع الوباء والحمى: (7/11).

وفي: 80 - كتاب الدعوات، 43 - باب الدعاء برفع الوباء والوجع (7/160).

ومسلم في: 15- كتاب الحج، 86 - باب الترغيب في سكنى المدينة، رقم (480) (2/1003).

وأحمد في المسند: (6/56، 65، 221-222، 239، 260) وفي هذه الرواية وحدها - في المسند - ذكر اللعن.

وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام، ذكر من اعتلَّ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (2/238).

[71] كما في حديث الغربة المخرج في أول هذه الرسالة.

[72] انظر: سيرة ابن هشام (2/140-143، 147، 150، 150-153)، والسيرة لابن كثير: (2/302-310، 319-329)، وعيون الأثر (1/195-202)، وانظر: دراسة في السيرة، لعماد الدين خليل ص (147-158).

[73] فتح الباري: (7/271).

[74] فتح الباري: (7/271).

[75] كما في صحيح البخاري: 64 - كتاب المغازي، 43 - باب عمرة القضاء، (5/85).

وفي: 53 - كتاب الصلح، 6 - باب: كيف يكتب: (3/168).

[76] في المستدرك: كتاب معرفة الصحابة (3/314)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال ابن حجر: بسند حسن،

وزاد نسبته لابـن عبـد الـبر، والضـياء فـي المختـارة. فتـح البــاري (7/271).

77 انظر: المستدرك: كتاب الهجرة (3/14)، وسكت عنه هو والذهبي، ويشهد لمعناه ما سبق، وانظر: الفتح (7/271)، وقد أنكر ابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير المؤاخاة قبل الهجرة. انظر: منهـاج السـنة: (4/96)، وزاد المعاد: (2/79)، والسيرة لابن كثير (2/326).

78 انظر ما سيأتي قريبًا في موضوع المواجهة مع اليهود.

79 سورة الحج: رقم الآيات 39-41.

80 الأبواء: قرية بينها وبين الجحفة من جهة المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً. انظر: الفتح (7/279).

81 بواط: بفتح الباء وقد تضم وتخفيـف الـواو - جبـل مـن جبـال جهينـة بقرب ينبع. الفتح (7/280).

82 العُشَيرة أو العُسَيرة: بضم العين وفتح السين وتخفيف الياء، مكانهـا عند منـزل الحج بينبع، ليس بينها وبين البلد إلا الطريق. انظر: الفتح (7/279)، معجم البلدان: (4/127).

83 أفردت لفتح مكة فقرة خاصة لأهميته.

84 انظر: دراسة في السيرة لعماد الدين خليل ص (175-176).

85 انظر: سيرة ابن هشام (2/90)، وتاريخ الطبري: (2/365).

86 كما في حديث ابن عباس، عن عمر رضي الله عنهما وسبق تخريجـه في آخر الفصل الثاني المتعلق بمظاهر الغربة.

87 انظر: السيرة لابن كثير: (2/463-464).

88 كما في حديث أبي طلحة رضي الله عنه وسبق فـي الفصـل الثـاني المتعلق بمظاهر الغربة، وانظر: سـيرة ابـن هشـام (2/276-292)، مرويات غزوة بدر للعليمي: ص (222-233) وغيرها.

[89] كـذا فـي المسـند المطبـوع، وفـي السـيرة لابـن كـثير: (2/433): فسبقنا المشركين، ولعله أولى.

[90] الطش: هو المطر القليل. انظر: النهاية (3/124).

[91] الحجف: جمع حجفة، وهو الترس. انظر: النهاية (1/345).

[92] كـذا فـي المسـند المطبـوع، وفـي السـيرة لابـن كـثير: (2/423): مشببة، وهو الأقرب إذ في رواية أبـي داود: فانتـدب لـه شـباب مـن الأنصار، ثم إن العادة أن يخرج من الأنصار بعدد القرشيين (أي: ثلاثة فقط).

[93] رواه الإمام أحمد: (1/117) من طريق حجاج، حدثنا إسـرائيل، عـن أبي إسحاق، عن حارثة بن مضرب، عن علي.

وأبو داود في: 9 - كتاب الجهاد، 119 - بـاب فـي المبـارزة، برقـم (2665)، (3/119) من طريق إسرائيل، مقتصرًا على خبر المبارزة.

وحجاج هو ابن محمد المصيصي الأعـور: ثقـة ثبـت، لكـن حصـل لـه اختلاط في آخر عمره، حين قدم بغداد قبل موته. انظـر: التهـذيب (2/205)، والتقريب (1/154).

وإسرائيل هو ابن يونس بن أبي إسحاق السبيعي: ثقة، ومضى.

وأبو إسحاق هو عمرو بن عبد الله السبيعي: مكثر ثقـة عابـد، إلا أنـه شاخ ونسي، وهو مدلس ومضى.

وحارث بـن مضـرب: ثقـة. انظـر: التهـذيب (2/166)، والتقريـب (1/145).

فالإسناد ضعيف، وله شواهد كثيرة يرتقي بها سبق بعضها.

قال ابن كـثير: "هـذا سـياق حسـن، وفيـه شـواهد لمـا تقـدم، ولمـا سيأتي" السيرة (2/424).

[94] سورة آل عمران: رقم الآية 123.

[95] انظر في تفصيلات غزوة بدر: سيرة ابن هشام (2/257-374)، (3/45-3).

وكتاب: مرويات غـزوة بـدر لأحمـد محمـد العليمـي، وفقـه السـيرة للغزالي ص (232-257)، وغيرها من كتب السير.

[96] نقلاً عن: شرح ثلاثيات المسند للشيخ محمد السفاريني: (1/278).

[97] سورة الفتح: رقم الآية 1.

[98] رواه البخاري عن أنس فـي: 64- كتـاب المغـازي، 35- بـاب غـزوة الحديبية، (5/66).

وفي: 65 - كتاب التفسير، 48 - سورة الفتح، 1- باب إنا فتحنـا لـك فتحًا مبينًا: (6/44).

والنسائي في الكبرى، في التفسير، أفاده المزي في التحفة، حديث (1270): (1/331).

والبيهقي في السنن، كتاب الجزيـة، بـاب نـزول سـورة الفتـح علـى النبي صلى الله عليه وسلم (9/222).

وفي دلائل النبوة، جماع أبـواب عمـرة الحديبيـة، بـاب نـزول سـورة الفتح (4/157).

[99] جاء هذا عن جابر رضي الله عنه:

رواه البخاري في: 61- كتاب المناقب، 25- باب علامات النبوة فـي الإسلام: (4/170).

وفي: 64 - كتاب المغازي، 35 - باب غزوة الحديبية (5/63).

وفي: 74 - كتاب الأشربة، 31 - باب شرب البَرَكة والماء المبارك (6/252).

ومسلم في: 33 - كتاب الإمارة، 18 - باب استحباب مبايعـة الإمـام الجيش، رقم (72،73)، (3/1484).

والنسائي: 1- كتاب الطهارة، 61 - الوضوء من الإناء: (1/61).

وفي الكبرى، أفاده المزي في التحفة، حديث (2242)، (1/175).

وأحمد في المسند: (3/329،365).

والبيهقي في الدلائل، جماع أبواب غزوة الحديبية، باب ما ظهر من الحديبية، بخروج الماء من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم (4/115-116).

وأبو نعيم في الدلائل، الفصل الخامس والعشرون، في فوران الماء من بين أصابعه.. ص (446).

وابن سعد في غزوة الرسول صلى الله عليه وسلم الحديبية (2/98).

100 كما في حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم:

وقد رواه البخاري في: 54- كتاب الشروط، 15- باب الشروط في الجهاد: (3/178-184).

والإمام أحمد في المسند: (4/323-326)، وفيه زيادات. وفيه تفاصيل أحداث الحديبية.

101 كما في رواية الإمام أحمد لحديث المسور، ومروان، وانظر: سيرة ابن هشام (3/332).

102 كما في رواية الإمام أحمد أيضًا، وانظر: سيرة ابن هشام: (3/332).

103 سيرة ابن هشام: (3/336).

104 سيرة ابن هشام: (3/337)، وانظر في غزوة الحديبية عمومًا: مرويات غزوة الحديبية للشيخ حافظ الحكمي، سيرة ابن هشام: (3/321-341)، فقه السيرة للغزالي (348-367).

105 كما في وثيقة المؤاخاة بين المؤمنين، والموادعة مع اليهـود، وقـد روى هذه الوثيقة ابـن إسـحاق بـدون سـند، كمـا فـي: سـيرة ابـن هشام هجرة الرسول صلى الله عليه وسـلم (2/147-150) ومـن طريقه رواه جمع من المؤلفين.

وروى بعضه: البيهقي فـي السـنن - كتـاب الـديات، بـاب العاقلـة: (8/106)، من طريق ابن إسحاق: حدثني عثمان بن محمد بن عثمان بن الأخنس بن شريق قال: أخذت من آل عمـر بـن الخطـاب رضـي الله عنه هذا الكتاب..، واقتصر فيه على الجـزء المتعلـق بالمؤاخـاة، وإن كان فيه إشارة إلى المعاهدة، والإسناد منقطع، كما هو ظاهر.

ورواه حميد بن زنجويه في كتاب الأموال: كتـاب العهـود الـتي كتبهـا رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم وأصـحابه لأهـل الصـلح، برقـم (750)، (2/466).

وأبو عبيد في الأموال: كتاب رسول الله صلى الله عليـه وسـلم بيـن المؤمنين وأهل يثرب، برقم (518): ص (193-196).

كلاهما من طريق عبد الله بن صالح، عن الليث، عن عُقيل بن خالـد، عن ابن شهاب، أنه قال: بلغني فذكره.

وعبد الله بن صالح: صدوق كثير الغلط، ومضى.

لكن تابعه يحيى بن عبد الله بن بكير -عند أبي عبيد- ويحيى ثقة فـي الليث. انظر: التهذيب (11/237)، التقريب (1/351).

والليث، وعقيل -بضم العين- ثقتان، ومضيا.

والإسناد ضعيف لإرسال الزهري.

ورواه ابـن أبـي خيثمـة، كمـا فـي عيـون الأثـر: ذكـر الموادعـة بيـن المسلمين واليهود (1/198) من طريق كثير بن عبد اللـه بـن عمـرو المزني، عن أبيه، عن جده.

والبيهقي في: كتاب الديات، باب العاقلة (8/106).

وهذه الطريق ضعيفة جدًّا، ولا تصلح للاستشهاد، ولا للاعتضاد كما سبق.

وقد روى أبو داود، عن كعب بن مالك، في قصة قتل كعب بن الأشرف، وفيه: فلما قتلوه، فزعت اليهود والمشركون، فغدوا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: طُرق صاحبنا، فقُتِل فذكر لهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن يكتب بينه وبينهم كتابًا ينتهون إلى ما فيه، فكتب النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبينهم، وبين المسلمين عامة صحيفة.

رواه أبو داود في: 14 - كتاب الخراج والإمارة والفيء، 22 - باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة، برقم (3000) (3/401، 402) من طريق محمد بن يحيى بن فارس، عن الحكم بن نافع عن شعيب، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه - وكان أحد الثلاثة الذين تيب عليهم.

ومحمد بن يحيى بن فارس، هو الذهلي: ثقة جليل. انظر: التهذيب (9/511)، والتقريب (2/217).

والحكم بن نافع: ثقة ثبت. انظر: التهذيب (2/441)، والتقريب (1/193).

وشعيب هو ابن أبي حمزة: ثقة عابد، من أثبت الناس في الزهري، انظر: التهذيب (4/351)، والتقريب (1/352).

والزهري: إمام حجة، ومضى.

وعبد الرحمن بن عبد الله بن كعب: ثقة. انظر: التهذيب (6/215)، والتقريب (1/488).

وأبوه هو كعب ومالك جده، كما يظهر من قوله -وكان أحد الثلاثة، وقد ثبت سماع عبد الرحمن من جده كما في التهذيب وغيره.

فالحديث -بهذا الإسناد- صحيح.

وقد رواه البيهقي في كتاب الجزية باب من لا تؤخذ منه الجزيـة مـن أهل الأوثان: (9/183) من طريق أحمد بـن الحسـن القاضـي، عـن أبي سهل بن زياد القطـان، عـن عبـد الكريـم بـن الهيثـم، عـن أبـي اليمان، عن شعيب، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبـد اللـه بـن كعب، أظنه عن أبيه، وكان ابن أحد الثلاثة الذين تيب عليهم.

وأحمد بن الحسن هو الحيري: إمام ثقة. انظـر: سـير أعلام النبلاء (17/356)، والوافي للصفدي: (6/306).

وأبو سهل هو أحمد بن محمد بـن عبـد الله بـن زيـاد القطـان: ثقة. انظر: السير (15/521)، الوافي (8/34).

وعبد الكريـم بـن الهيثـم هـو الـدير عـاقولي: ثقـة. انظـر: السـير (13/335)، والمنتظم (5/120).

وأبو اليمان، هو الحكم بن نافع الحمصي، وسبق قبل قليل.

وعلى هذا فالرواية مرسلة؛ لأنها عن عبد الله بن كعـب، وهـو تـابعي ويمكن ترجيح رواية أبي داود للجزم الذي فيها، خلافًا لرواية البيهقي التي فيها التردد.

ويُلحظ في هذه الرواية تأخرُ الكتابة عن بداية العهـد المـدني، وهـذا خلاف ما عليه معظم أهل السير والمؤرخين وغيرهم.

وجمع بعضهم بين الروايتين بأن ما في روايـة كعـب إنمـا هـو تجديـد للموثق الأول، والله أعلـم. انظـر: الأمـوال لأبـي عبيـد: ص (197)، وتاريخ الطبري (2/479)، وكتاب: المجتمع المدني في عهـد النبـوة للدكتور أكرم ضياء العمري ص(114).

106 انظر ما سبق في موضوع البيعة.

107 سورة البقرة: رقـم الآيـة 14 وانظـر: تفسـير الطـبري (1/129)، تفسير البغوي (1/51)، الدر المنثور(1/78)، وهذا أحد الأقوال في الآية.

[108] جاء الحديث بذلك عن ابن عباس:

رواه البخاري في: 61- كتاب المناقب، 23- باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم (4/166).

وفي: 63- مناقب الأنصار، 52- باب إتيان اليهود النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة (4/269).

وفي: 77- كتاب اللباس، 70- باب الفرق (7/59).

ومسلم في: 43 - كتاب الفضائل، 24 - باب في سدل النبي صلى الله عليه وسلم شعره وفرقه، رقم (90) (4/1817).

وأبو داود في: 27 - كتاب الترجل، 10 - باب ما جاء في الفرق، رقم (4188) (4/407).

والترمذي في الشمائل: 3 - باب ما جاء في شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم رقم (29) ص (46).

والنسائي في: 48 - كتاب الزينة، 62 - فرق الشعر (8/184).

وابن ماجه في: 32- كتاب اللباس، 36- باب اتخاذ الجمة والذوائب، رقم (3632) (2/1199).

وأحمد في المسند: (1/246،261).

وانظر في هذا كتاب: "اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم" لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د. ناصر العقل (1/410-419) فهو مهم.

[109] سيأتي بعض ذلك في رسالة العزلة ضمن مبحث: الاستسرار بالدين ضمن هذه السلسلة.

[110] انظر حول موضوع اليهود: دراسة في السيرة لعماد الدين خليل: ص (319-359)، وفقه السيرة للغزالي (257-264، 301، 335، 368).

[111] سورة القصص: رقم الآية 68.

[112] وانظر ما يأتي فـي آخـر هـذا الفصـل فـي موضـوع: عوامـل دفـع الغربة.

[113] سورة القصص: رقم الآية 85.

[114] رواه البخاري في: 65 - كتـاب التفسـير، 28 - القصـص، بـاب إن الذي فرض عليك القرآن: (6/18).

والنسائي في الكبرى، أفاده المزي في التحفة، حديث (6094)، (5/135).

والطبري في التفسير: (20/125).

ونسبه السيوطي لابن أبي شـيبة، وعبـد بـن حميـد، وابـن المنـذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي: الدر (6/445).

[115] انظر ما سبق في موضوع الحديبية.

[116] سميت الخضراء لكثرة الحديد والسلاح فيها، كما قال ابن هشـام (4/46).

[117] رواه ابن هشام عن ابن إسـحاق بـدون إسـناد، فـي ذكـر الأسـباب الموجبة المسير إلى مكة (4/47).

والطبري في التاريـخ، ذكـر الخـبر عـن فتـح مكـة عـن محمـد بـن إسحاق قال: حدثني حسين بن عبد الله بـن عبيـد اللـه بـن عبـاس عن عكرمة عن ابن عباس.

والحسين ضعفه ابـن معيـن وأبـو حـاتم وقـال النسـائي: مـتروك، وقال ابن عدي: أحاديثه يشبه بعضها بعضًا، وهو ممن يكتب حـديثه فإني لم أجد في حديثه حديثًا منكرًا قد جاوز المقدار.

وقال الذهبي: ضعفوه، وقال ابن حجر: ضعيف.

انظر: تهذيب التهذيب: (2/341)، والتقريب (1/176)، والكاشف (1/170).

ولكن رواه إسحاق بن راهويه في مسنده من طريق ابـن إسـحاق قال: حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بـن عتبـة عـن ابـن عباس.

وإسناد إسحاق حسن، ورجاله ثقات خلا ابن إسـحاق فهـو صـدوق مدلس وقد صرح في هذه الرواية بالتحديث؛ ولذلك قـال الحـافظ ابن حجر: "هذا حديث صحيح، ورواه الذهلي بتمامه في الزهريـات من طريق (أبي إدريس) عن محمـد بـن إسـحاق، لكـن ليـس فيـه تصريح ابن إسحاق بسماعه له مـن الزهـري، والسـياق الـذي هنـا حسن جدًّا".

المطالب العالية (النسخة المسـندة المخطوطـة)، كتـاب السـيرة والمغازي، باب غزوة الفتح: (ل 359-360).

وعزاه الهيثمي في المجمع للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

كتاب المغازي والسير، باب غزوة الفتح: (6/166-167).

ولم أجده في مسند ابن عباس في الطبراني الكبير.

وروى أبو داود قصة إسلام أبي سفيان، والتـأمين مـن طريـق ابـن إسحاق عن الزهري عن عبيد الله بن عبد اللـه بـن عتبـة عـن ابـن عباس.

14 - كتاب الخراج والإمارة والفيء، 25 - بـاب مـا جـاء فـي خـبر مكة، رقم (3021)، (3/416).

وساق البخاري في صحيحه نحوه عن هشام بن عروة عن أبيه.

64- كتاب المغازي، 48 - بـاب أيـن ركـز النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم الراية يـوم الفتـح: (5/91). فهـو مرسـل. قـال ابـن حجـر: "ولم أره في شيء من الطرق عن عروة موصولاً" الفتح (8/6).

[118] المجنبة: بضم الميم وفتح الجيم وكسر النون المشددة - هي الكتيبة التي تكون في الميمنة والميسرة، فللجيش مجنبتان، انظر: النهاية (1/303).

[119] سيأتي تخريجه.

[120] انظر ما سبق في أول هذا الفصل.

[121] سيرة ابن هشام: (4/205).

[122] وانظر تفصيلات الوفود في: سيرة ابن هشام (205-247)، ودلائل النبوة للبيهقي: (5/309-416)، طبقات ابن سعد (1/29 1-359)، ولعله من أوسع المصادر في هذا الموضوع، وزاد المعاد (3/498-512، 595-686).

[123] انظر ما سبق في أول الموضوع (خطوات بارزة).

[124] رواه مسلم في: 32 - كتاب الجهاد والسير، 27 - باب كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل رقم (75)، (3/1397).

وأبو عوانة في: كتاب الجهاد، بيان كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل (4/195، 196-197).

والبيهقي في الدلائل، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الجبارين يدعوهم إلى الإسلام (4/376).

[125] انظر في مراسلات النبي صلى الله عليه وسلم: طبقات ابن سعد (1/258-291) وهو من أوسع المصادر، ومستخرج أبي عوانة (4/176-198)، وزاد المعاد: (3/688-697).

[126] سيرة ابن هشام (4/21-22)، وانظر: زاد المعاد (3/383)، حيث قال ابن القيم رحمه الله: "والصحيح ما ذكره ابن إسحاق أن كل فئة انحازت عن الأخرى".

وانظر: في غزوة تبوك: المصـدرين السابقين، وسيرة ابن كـثير (3/455-493)، وكتـاب خالـد بـن الوليـد للشـيخ محمـد صـادق عرجون ص (56-69) وهو مهم.

127 أيلة: بفتح الهمزة مدينة على ساحل البحر مما يلـي الشـام، وذكـر بعضهم أنها التي تعرف اليوم بالعقبة.

انظر: معجم البلـدان (1/292)، معجـم المعـالم الجغرافيـة فـي السيرة: ص (35).

128 جرباء -بفتح الجيم- موضع من أعمال عمان بالبلقاء، وتقـع شـمال غربي مدينة معان الأردنية على بعد 22 كيلاً تقريبًـا. انظـر: معجـم البلدان (2/118)، معجم المعالم: ص (81).

129 أَذْرُح - بفتح الهمزة وضم الراء - بلد في أطراف الشام من أعمال الشرارة ثم من نواحي البلقاء وهي على مقربة من جرباء. معجـم البلدان (1/129)، معجم المعالم: ص (81).

130 دومة الجندل -بضم الدال وفتحها- هي بلدة على سبع مراحل مـن دمشق بينها وبين المدينة المنورة، وهي من قرى الجـوف، معجـم البلدان (2/487)، معجم المعالم: ص (127).

131 انظـر: سـيرة ابـن هشـام (4/159-180)، زاد المعـاد: (3/526-592).

132 سيرة ابن هشام (4/291).

133 سورة القصص: رقم الآيات 5،6.

134 سورة النور: رقم الآية 55.

135 سورة التوبة: رقم الآية 33.

وسورة الفتح: رقم الآية 28.

وسورة الصف: رقم الآية 9.

[136] سورة التوبة: رقم الآية 12.

[137] رواه البخاري في: 65- كتاب التفسير، 9- سـورة بـراءة، 5- بـاب فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم. (5/203). وهذا لفظه.

ورواه النسائي في كتاب التفسير في السنن الكبرى، أفاده المزي في التحفة، رقم الحديث (3330)، (3/33).

وعـزاه السـيوطي فـي الـدر لابـن أبـي شـيبة وابـن مردويـه: (4/136).

[138] سبق تخريجه في الفصل الثاني.

[139] سورة الصافات: الآيات من 171-182.

[140] كما حدث في يوم الأحزاب، وسبق بيانه.

[141] سورة النحل: رقم الآية 89.

[142] رواه الإمام أحمد: (4/131)، من طريق يزيد بـن هـارون، أخبرنـا حريز بن عبد الرحمن بن أبي عوف الجرشي (والصواب: عن عبد الرحمن بن أبي عوف) عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه.

ويزيد بن هـارون: ثقـة متقـن عابـد. انظـر: التهـذيب (11/366)، والتقريب (2/372).

وحريـز هـو ابـن عثمـان: ثقـة ثبـت. انظـر: التهـذيب (2/237)، والتقريب (1/159).

وعبد الرحمن بـن أبـي عـوف الجرشـي: ثقـة، وقيـل: لـه صـحبة. انظر: التهذيب (6/246)، والتقريب (1/494).

فالحديث - بهذا الإسناد - صحيح.

[143] انظر: ما سبق في موضوع الجهر بالدعوة، والعرض على القبائل، وقبلهما في موضوع الاضطهاد.

[144] سورة ص: رقم الآية 6.

[145] تفسير الطبري: (23/126).

[146] رواه مسلم في: 32 - كتاب الجهاد والسير، 2 - باب تأمير الإمـام الأمراء على البعوث، رقم (3)، (3/1357).

وأبو داود في: 9- كتـاب الجهـاد، 9 - بـاب فـي دعـاء المشـركين، برقم (1612)، (3/83).

والترمذي في: 22 - كتاب السير، 48 - باب مـا جـاء فـي وصـيته صـلى اللـه عليـه وسـلم فـي القتـال، برقـم (1617)، (4/162)، وقال: حديث حسن صحيح.

والنسائي في الكبرى: كتاب السير، 3 - الدعوة قبل القتـال (ل 1 14ب).

وابن ماجه في: 24 - كتـاب الجهـاد، 38 - وصـية الإمـام، برقـم (2858)، (2/953).

والإمام أحمد في المسند: (5/352، 358).

[147] () سـبق تخـرج حـديث بعثـه صـلى اللـه عليـه وسـلم الرسـائل، والإشارة إلى الموضوع جملة - قبل صفحات.

[148] وقد سبق ذكر أمثلة عديـدة لـذلك فـي مـواطن عديـدة، كصـبرهم على اضطهاد قريـش، وهجرتهـم إلـى الحبشـة، ثـم إلـى المدينـة، وموقف الأنصار من البيعتين وفـي اسـتقبال المهـاجرين، وموقـف المؤمنين -مهاجرين وأنصـارًا- فـي المعـارك الكـثيرة بينهـم وبيـن المشركين.

[149] رواه البخاري في: 62 - فضـائل أصـحاب النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم، 5 - باب "ضمن فضائل أبي بكر": (4/195).

ومسلم في: 44 - كتاب فضائل الصحابة، 54- بـاب تحريـم سـب الصحابة، رقم (221،222)، (4/1967)(*).

وأبو داود في: 34- كتاب السنة، 11- باب في النهي عن سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رقم (4658): (5/45).

والترمذي في: 50 - كتاب المناقب، 59 - باب رقم (3861) (5/695)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(*) وقع في مسلم - الموضع الأول، وفي ابن ماجه، وفي الفضائل للنسائي: الموضع الثاني، وفي الكبرى: الموضع الثاني: عن أبي هريرة. وقد قال خلف الواسطي، وأبو مسعود الدمشقي، وأبو علي الجياني، والمزي، وابن حجر، وغيرهم: إنه خطأ، انظر: تحفة الأشراف (3/343، 344)، فتح الباري: (7/35، 36).

والنسائي في فضائل الصحابة، مناقب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، والنهي عن سبهم رقم (203،204) ص (179).

وفي الكبرى، 48 - كتاب المناقب، 60 - مناقب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: (ل 109 ب).

وابن ماجه في: المقدمة 11 - باب في فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رقم (161)، (1/57)(*).

والإمام أحمد في مسنده: (3/11، 54)، وفي فضائل الصحابة، رقم (6-7)، (1/51).

والخطيب في تاريخ بغداد: ترجمة رقم (3596) (7/144).

وله شواهد منها:

عن جابر في تاريخ بغداد ترجمة (1180): (3/149).

وعن أنس في فضائل الصحابة للإمام أحمد رقم (8): (1/53).

ونحوه في تاريخ بغداد، ترجمة (4240): (8/144).

150 سورة الحديد: رقم الآية 10.

151 سورة النساء: رقم الآية 77.

152 رواه النسائي في: 24 - كتاب الجهاد، 1 - باب وجوب الجهاد: (6/3).

والطبري في التفسير، تفسير سورة النساء، (5/170).

وابن أبي حاتم -كما في تفسير ابن كثير- (1/525).

والحاكم في: كتاب الجهاد، (2/66) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

والبيهقي في سننه، كتاب السير، باب مبتدأ الإذن بالقتال: (9/11).

ونسبه ابن كثير في التفسير لابن مردويه أيضًا: (1/526).

رووه كلهم من طريق علي بن الحسن بن شقيق، أنبأنا الحسين بن واقد، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس.

وعلي بن الحسن بن شقيق: ثقة حافظ. انظر: التهذيب (7/298)، التقريب (2/34).

والحسين بن واقد: ثقة له أوهام. انظر: التهذيب (2/373)، والتقريب (1/180).

وعمرو بن دينار: ثقة ثبت. انظر: التهذيب (8/28)، والتقريب (2/69).

وعكرمة: ثقة ثبت، ومضى.

فالحديث - بهذا الإسناد - صحيح.

153 وقد جمع معظم ما كتب حوله صلى الله عليه وسلم الدكتور صلاح الدين المنجد، في كتاب: معجم ما ألف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

154 سورة آل عمران: رقم الآية 159.

155 سورة آل عمران: رقم الآية 159.

156 كما في قصة أبي سيفان مع هرقل حين سأله: هل يكذب؟ فقال: لا، وحين سأله: هل يغدر؟ فقال: لا، وسيأتي تخريجها.

[157] كما في وصفهم لـه بالسـحر والجنـون وغيرهـا! حاشـاه مـن ذلـك صلى الله عليه وسلم.

[158] رواه الترمـذي فـي: 38- كتـاب صـفة القيامـة، 42- بـاب برقـم (2485)، (4/652)، وقال: هذا حديث صحيح.

وابن ماجه في: 5- كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، 174- باب ما جاء في قيام الليل، برقم (1334): (1/423).

وفي: 29- كتاب الأطعمة، باب: إطعام الطعام، برقم (3251)، (2/1083).

والدارمي في: 2- كتـاب الصـلاة، 156- بـاب فضـل صـلاة الليـل، برقم (1468)، (1/280).

وفي: 19- كتاب الاستئذان، 4- بـاب فـي إفشـاء السـلام برقـم (2635) (2/188).

وأحمد في المسند: (5/451).

والحاكم فـي: كتـاب الـبر والصـلة (4/160)، وقـال: هـذا حـديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وفي: كتاب الهجرة (3/13)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

كلهم من طريق عوف بن أبي جميلـة، عـن زرارة بـن أوفـى، عـن عبد الله بن سلام.

وعوف: ثقة. انظر: التهذيب (8/166)، والتقريب: (2/89).

وزرارة: ثقــة عابــد. انظــر: التهــذيب: (3/322)، والتقريــب (1/259).

فالحديث - بهذا الإسناد- صحيح..

[159] سبق في الفصل الأول الحديث عن حال البشرية قبل البعثة، وحال العرب خاصة.

[160] هو عمير بن شُييم التغلبي، واسمه منقول من الصقر، لأن الصقر يقال له: قطامي -بفتح القاف وضمها- شاعر جاهلي. انظر: خزانة الأدب للبغدادي: (2/370).

[161] جزء من حديث أم سلمة في قصة الهجرة إلى الحبشة، وقد سبق تخريجه.

[162] انظر: سيرة ابن هشام (2/29).

[163] كما سبق الإشارة إليه في قولهم: إن نبيًا قد جاء زمانه، نتبعه، ونقتلكم به قتل عاد وإرم.

[164] انظر: مقدمة ابن خلدون: (1/266).

وانظر في البيئة الطبيعية للجزيرة العربية: السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص (39 وما بعدها).

[165] كما سبق في قصة عمر، وجوار العاص بن وائل له.

[166] سبق طرف منه في حادث حصار الشعب وغيره.

[167] سيرة ابن هشام: (1/294).

[168] سبق مرارًا.

[169] انظر: كتاب (اليهود في شبه الجزيرة العربية) للدكتور/ محمد العقيلي: ص (61).

وخيبر: ناحية على نحو (165) كيلومترًا من المدينة إلى الشمال على طريق الشام وكانت سبعة حصون مشهورة بالنخيل, انظر: معجم البلدان (2/409)، ومعجم المعالم الجغرافية ص (118).

وتيماء: بلد بين الشام ووادي القرى. معجم البلدان (2/67).

وفدك: بتحريك الدال - قرية بالحجاز بينها وبين المدينـة يومـان أو أكـثر وتعـرف اليـوم بالحـائط، معجـم البلـدان: (4/38). معجـم المعالم الجغرافية ص (235).

ووادي القرى: هو المعروف بوادي العلا، شمال المدينة على نحو (350) كيلومترًا منهـا. معجـم البلـدان (5/345)، معجـم المعـالم الجغرافية: ص (250).

[170] انظر: سيرة ابن هشام (2/222).

ونجران مدينة معروفة على الطريق بين صعدة وأبهـا، وهـي علـى نحو (910) كيلومترًا إلى الجنوب الشرقي من مكة. انظر: معجم المعالم الجغرافية ص (314).

[171] رواه البخـاري فـي: 56- كتـاب الجهـاد والسـير، 176 - بـاب هـل يستشفع إلى أهل الذمة؟: (4/31).

وفي: 58- الجزية والموادعة، 6- بـاب إخـراج اليهـود مـن جزيـرة العرب (4/65).

وفي: 64- كتاب المغازي، 83 - باب مرض النبي صلى اللـه عليـه وسلم ووفاته: (5/137) وهذا لفظه.

وروى طرفًا منه في: 3 - كتـاب العلـم، 39 - بـاب كتـاب العلـم (1/37).

وفـي: 75 - كتـاب المرضـى والط ب، 17- بـاب قـول المريـض: قوموا عني: (7/9).

وفي: 96 - كتاب الاعتصام، 36- باب كراهية الخلاف: (8/161).

ومسلم في: 25 - كتـاب الوصية - باب ترك الوصية لمن ليس له شـيء يوصـي فيـه، رقـم (20)، وطرقًـا منـه فـي (21،22)، (3/1257-1259).

وأبو داود في: 14 - كتاب الخراج والإمارة والفيء، 28 - باب فـي إخراج اليهود من جزيرة العرب، رقم (3029)، (3/423).

وروى طرفه: النسائي في الكبرى، 27 - كتاب العلـم، 11 -كتابـة العلم (ل 75 ب، 76أ)، 13 - كتابة العلم في الألواح والأكتاف (ل: 76أ).

ورواه الإمام أحمد في المسند: (1/222).

والبيهقي في السنن، كتـاب الجزيـة، بـاب لا يسـكن أرض الحجـاز مشرك: (9/207).

172 رواه مسلم في: 32 - كتاب الجهاد والسير، 21-باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، رقم (93).

وأبو داود في: 14 - كتاب الخراج والإمارة والفيء، 28 - باب فـي إخراج اليهود من جزيرة العرب رقم (3030، 3031)، (3/424).

والترمذي في: 22- كتـاب السـير، 43- بـاب مـا جـاء فـي إخـراج اليهود والنصارى من جريرة العـرب، رقـم (1606،1607) وقـال: هذا حديث حسن صحيح: (4/156).

والنسائي في الكبرى: 50- كتاب السير، 78- إجلاء أهـل الكتـاب: (ل 116أ).

وأحمد في المسند: (1/29).

والبيهقي في السنن، كتـاب الجزيـة، بـاب لا يسـكن أرض الحجـاز مشرك (9/207).

وله شواهد منها: حديث أبي هريرة عند البخـاري فـي: 58- كتـاب الجزية، 6- باب إخراج اليهود من جزيرة العرب: (4/65).

وفي: 89- كتاب الإكراه، 2- باب بيع المكره (8/56).

وفي: 96- كتاب الاعتصام، 18- باب قوله تعالى: (وَكَانَ الإنْسَـانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً) (8/156).

وعند مسلم في: 23- كتاب الجهاد والسير، 20- باب إجلاء اليهـود من الحجاز رقم (61)، (3/1387).

وأبي داود في: 14- كتاب الخراج والإمارة والفيء، 22- باب كيف كان إخراج اليهود؟ رقم (3003) (3/403).

والنسائي في الكبرى: 50- كتاب السير، 78- إجلاء أهـل الكتـاب: (ل 116أ).

وأحمد في المسند، (2/451).

والبيهقي في السنن، الموضع السابق: (9/208).

ومنها حديث أبي عبيدة عند الإمام أحمد: (1/195)، وأبي نعيم في الحلية، رقم الترجمة (437) (8/372).

وأيضًا: ترجمة (438)، (8/385)، والبيهقي (9/208) وغيرهما.

173 كتاب العزلة: ص (48).

174 سبق مرارًا.

175 وهذا ما حدث فعلاً، كما في غزوة بدر وغيرها.

176 سبق تخريج الحديث.

177 سبق تخريج الحديث.

178 انظـر: دلائـل النبـوة للـبيهقي: (2/431) وسـيرة ابـن هشـام (2/70-71).

179 ارفضوا: ارجعوا.

180 رواه ابن إسحاق في السيرة، كما فـي سـيرة ابـن هشـام، أسـماء النقباء وتمام خبر العقبة: (2/86-90).

والإمام أحمد في مسنده: (3/462).

والطبري في التاريخ: (2/364).

وابن سعد في الطبقات، ذكر العقبة الآخرة (1/221).

و البيهقي في الدلائل، باب ذكر العقبة الثانية (2/444-449).

كلهم من طريق محمد بن إسحاق، حدثني معبد بن كعب بن مالـك عن أخيه عبد الله، عن أبيه كعب.

وهذا إسناد حسن - وقد سبق.

181 سورة الأنفال: رقم الآية 72.

182 سورة الأنفال: رقم الآية 74.

183 سورة الأنفال: رقم الآية 75.

184 سورة التوبة: رقم الآية 20.

185 سبقت تفصيلات هذه الأحداث.

186 سبق الحديث عن أم سلمة مرارًا.

187 سبق الحديث عن إسلام النجاشي، وصلاة النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم عليه بعد موته، وتسميته له أخًا.

188 كما في حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، فـي قصـة الحديبية، وفيه قول عروة ابن مسعود الثقفي: إنـي جئـت كسـرى في ملكه، وجئت قيصر، والنجاشي، في ملكهما، والله ما رأيت ملكًا قط مثل محمد – صلى الله عليه وسلم - في أصـحابه، ولقـد رأيـت قومًا لا يُسْلمونه لشيء أبدًا، وكان عروة رأى ما يصنع الصحابة بالنبي - صلى الله عليه وسلم - لا يتوضأ وضوءًا إلا ابتدروه، ولا يبصق بصاقًا إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، والحديث سبق في الحديبية.

189 كما حدث حين قتل الأوس كعب بن الأشرف، فاسـتأذنت الخـزرج رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم - في قتل سلام بن أبـي الحقيق، أبي رافع، فأذن لهم فقتلوه، وقـد سـبق بيـان شـيء مـن ذلك، وانظر: سيرة ابن هشام (3/286).

[190] رواه البخاري في 9- كتاب مواقيت الصلاة، 22- باب فضل العشاء (1/141). باب النوم قبل العشاء لمن غلب: (1/142).

وفي: 10- كتاب الأذان، 162- باب خروج النساء إلى المساجد (1/210).

161- باب وضوء الصبيان (1/209).

ومسلم في: 5- كتاب المساجد ومواضع الصلاة، 39- باب وقت العشاء وتأخيرها: (1/441).

والنسائي في: 5- كتاب الصلاة، باب فضل صلاة العشاء (1/239).

6- كتاب المواقيت، آخر وقت العشاء (1/267).

والدرامي في: 2- كتاب الصلاة، 19- باب ما يستحب من تأخير العشاء، رقم (1216)، (1/221).

[191] وأحمد في المسند: (6/199، 215، 272).

وابن خزيمة في: كتاب الصلاة، 26- باب الخبر الدال على الرخصة في النوم قبل العشاء رقم (348)، (1/179).

وابن حبان- كما في الإحسان، كتاب الصلاة، ذكر خبر تعلق به من لم يحكم صناعة الحديث فزعم أن تأخير المصطفى صلاة العشاء كان ذلك في أول الإسلام، رقم (1526)، (3/59).

والرواية المذكورة هي في البخاري: (1/210).

وللحديث شواهد عن أنس، وابن عمر، وأبي سعيد، وأبي موسى، وابن مسعود، وجابر، وابن عباس، ومحمد بن المنكدر عن أبيه، وغيرهم.

(191) سبق في حديث ابن عمر.

[192] في حديث عمرو بن عبسة، وسبق مرارًا.

193 في حديث كعب بن مالك، وسبق أكثر من مرة.

194 انظر: حديث بريدة السابق في أول موضوع عوامل التمكين، وانظر ما يأتي بعد، في موضوع الجهاد، في الرسالة الثالثة من هذه السلسلة.

195 كما في حديث أنس السابق في آخر: خطوات بارزة، وسبق فيها الإشارة إلى مراسلاته صلى الله عليه وسلم للملوك وغيرهم.

196 كما في الآية: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ...) وسبق حديث ابن عباس في سبب نزولها.

197 زاد المعاد (3/159)، وسيأتي مزيد بسط لذلك في موضوع الجهاد، من الباب الثالث.

198 من المعلوم أن من دخل في الإسلام ثم خرج منه فهو مرتد حلال دمه وماله لحديث: "من بدّل دينه فاقتلوه" رواه البخاري.

199 انظر: فقه السيرة للغزالي: ص (227)، وراجع ما سبق في أول هذا الفصل.

200 رواه البخاري في: 64- كتاب المغازي، 29- باب غزوة الخندق وهي الأحزاب: (5/48).

والإمام أحمد في المسند: (4/262)، (6/394).